
روايات الجيب
المتهمة



للكاتب الفرنسى

الكسندر ميسون

ترجمة

عمر عبد العزيز أمين

الفصل الاول - عليلان

كان المصباح الصغير يرسل ضوءه الخافت المضطرب، وقد جلس أمام السرير رجل فى مقتبل العمر تبدو عليه آثار التعب، وهو يتحسس جبين الصبى النائم فى غبطة وابتهاج.

وكان لويس فلوريو حديدى الاعصاب ماضى العزيمة، وصل بحبه الى منصب وكيل النائب العام فى باريس، وهو دون الحادية والثلاثين. وبرغم ما عاناه خلال هذين الاسبوعين من الجهد والالم فانه لم يتأخر دقيقة واحدة عن موعد المحكمة فى الصباح.

لم يعد فى الحياة ما يشغله غير عمله وولده فقسم وقته بينهما غير مكترث بنفسه .. ولماذا يفكر فى نفسه وقد ذهبت المرأة التى كان يحب الحياة من أجلها، ويضنى نفسه فى طلب الثروة والجاه لكى يضعهما عند قدميها؟

كان منذ سنتين اسعد الناس جميعا.. ثم عاد ذات مساء فاذا بحياته تندك صروحها أما هى فقد فرت واختفت من مسرح حياته، وأن ظلت ذكراها تمثل له بكل سبيل.

واستعان على نسيانها بكل ما أوتى من القوة والعزك فأكب على العمل اكبابا جنونيا ولزم الطفل لا يفترق عنه الا حين يدعوه العمل، وكان للطفل من أمه الشعر الفاحم الجعد والعينين الدعجاوين، وليس في هذا ما يعين الاب المنكود على السلو والنسيان..

ثم مرض الطفل فألحت عليه ذكراها الحاحا عنيفا. وما أكثر ما فكر خلال تلك الليالى الطويلة المضنية، لو كانت الى جانبه تشاطره الجهد والالم، وتوحى اليه بالامل والرجاء. وانه ليتمنى الان لو انها تقاسمه الغبطة والابتهاج، اذ يشهد ان معا ادبار الحمى واقبال بشائر العافية !

ولكنها لا تحبه ولم تحب والدها.. فقد هجرتهما جميعا وقطعت عليه تأملاته الخادمة روز اذ جاءت تنبئه أن مدام فاران بالمكتبة، فقام متثاقلا وهو

يتنهد من فؤاد مقروح.

ومد ام فاران هذه ارملة دائعة الحسن، وهي شقيقة الدكتور شينيل الذى عنى بولده ريمون عناية الاب بفلذة كبده، وكانت تحب الطفل، وتكن لابيه عاطفة تزيد على الاعجاب والتقدير وكانت تعتقد انه ارمل، اذ كان يقيم بباريس حين حلت الكارثة، ورحل على أثرها الى ضاحية باسي فظل أمره مجهولا من أهلها.

وقال وهو يصافحها بحرارة :

- انى شاكر لك عطفك واهتمامك يامدام فاران، ومحال ان اقوم بحق أخيك من الحمد والثناء، فأنى مدين له بحياة ولدي.

- ان فى نجاته خير جزاء لاخى فاننا نحبه أشد الحب.

- وهو يحبك كذلك، وكنت أول من سأل عنه عندما افاق من غمرة الحمى.. انى لاشكرك من اعماق قلبي على صداقتك الكريمة.

فقالت ضاحكة :

- ما اغرب اطوارك ! يجب اذا ان القى الخطب الطوال في شكرك على صداقتك ايضا..

- ليس هذا بصحيح .. فانك رقيقة انيسة العشرة، اما أنا فجاف غليظ لا تروق عشرته احدا..

فهزت مدام فاران رأسها قائلة :

- ولكنك لن تبلغ من الغلظة بعض ما كان عليه زوجى، وان كل شئ بعده ليبدو ساراً بهيجا..

فقال فلوريو مازحا: حتى انا ؟

- حتى انت !

وجاء شقيقها الدكتور شينيل فمكثت قليلا. ثم انصرفت وهى تنظر الى فلوريو نظرات تشف عن الميل والهوى.

وبعد أن اطمأن الطبيب على ريمون. استوثق من نجاته من الخطر قال:

- عليك الان ياصديقى ان تعنى بنفسـك بعض العناية. فانك ترهق نفسك ارهاقـا شديدا .. يجب ان تتـريض سـاعتين كل يوم. وتتـناول قدراً كـافيـا من الغذاء ..

- هذا امر لا سبيل اليه ..

- تزوج اذن امرأة مرحة تفـيض عليك من مرحها ما يحفـظ شبابك وتقوم من ولدك مقام الام الرءوم . ولن يعييك طلب هذه المرأة..

ادرك فلوريو ان الطبيب يـعنى شقيـقته. فلم ير بدا من اظهـاره على سره، ووقف برهة مشدوها واجما ثم قال فى صوت متهدج :

- كان ينبغى ياصديقى أن اخبرك من أول الامر ان زوجتي لا تزال على قيد الحياة، وقد فرت مع عشيق لها بعـد ان عشنا معا ثلاث سنين. عدت ذات مساء قبل موعـدى ففاجأتهمـا معا، ولولا مبادرتهـما الى الفرار لقتلتـهما. وليس فى مقدورك ياصديقى أن تتصور عظم تعاستى وشقائى ..

قال الطبيب في حنان : الا تزال تحبها ؟

فاطرق فلوريو حتى لا يرى صاحبه ايات حزنه والمه وقال :

- ان ذكـراها لا تفـتـأ تـعـرض لى فى كل لحظة برغـمى، ومـا مـنعني من الانتحار غير ريمون. فلو قضى ....

فقال الطبيب فى صوته الهادئ الرقيق :

- ستراه سليما معافى بعد أسبوع ..

وجاءت روز تنبئهما ان ريمون قد استـيقظ فسارا الى غرفته، وهمت الخادم باللحـاق بهما واذ بجـرس الباب يقـرع قرعا خـفيـفا. وظنت الطارق صـديقا للاسرة يدعى نويل كـانوا فى انتظار قدومه من جنوب فرنسـا وفى ذلك المساء، فاسرعت الى الـباب ولكن سرعان ما تبـدلت ابتسامتـها ذهولا واضطرابا حين وجدت بين ذراعيها سـيدة في ريعان الشباب تهتف بصوت مختنق :

- روز !

لقد عادت جاكلين فلوريو ..

الفصل الثاني - النادمة

كان فى محيا مدام فلوريو ابلغ ايات الندم والاسى، وقد ذهبت نضرته وغشى العينين الصافيتين قتام ينبئ عما كابدت صاحبتهما من سهد، وما ذرفت من دموع.. وهتفت فى صوت تقطعه الزفرات:

- ولدي .. ريمون .. أهو مريض حقا ؟

فاجابت الخادمة وهى تتخلص من يديها فى رفق :

- منذ أكثر من اسبوعين ياسيدتى ..

ودفعت الام الشقية باب المكتبة متهيبة، فلما رآتها خالية همست قائلة :

- لم اعلم الا بالامس، يجب ان اراه..

فاجابت الخادمة مضطربة :

- أن المسيو فلوريو عنده ياسيدتى .. مسكين سيدى الصغير! لقد كنا فى يأس من نجاته ..

ووقع بصر جاكلين على صورة لولدها، فتناولتها واكبت عليها لثما، والدموع تنهمر من عينيها وهى تقول :

- ولدي .. ريمون .. شدما يحز فى نفسي انه كان يمكن ان يموت دون أن تراه، أيعرفنى اذا رآنى ؟

فهتفت الخادمة فى وجل : المسيو فلوريو قادم !

وأبتدرت جاكلين الباب مترنحة كالثملة، ولكن روز لم تلبث أن طوقتها بذراعيها هامسة : كلا.. كنت واهمة.. ووضعت جاكلين يدها على صدرها تسكن خفقاته واضطرابه، ثم قالت :

- ما اشد اخفقان قلبى ! ما عساه يقول حين يرانى. ولكنى لن اشكو مهما

يفعل بى اذا اذن لى بالبقاء الى جانب ولدى .. أما اذا ابى مقابلتى فما أدرى كيف تكون عاقبة أمرى ..

فقالت الخادم :

- الا يحسن ان تكتبى اليه اولا ياسيدتى ؟ انك تفاجئينه بحضورك وما اظنك تجهلين حدة طبعه ..

- لقد كتبت اليه ثلاث رسائل، فلم يرد بكلمة ..

- لم يفضها ياسيدتى ..

فاخذت جاكلين فى البكاء، ثم رفعت رأسها وفى عينيها بريق كوهج الحمى وصاحت :

- لابد ان اراه ! ليس له ان يحكم على دون سماع دفاعى الا يتحدث عنى احيانا؟

- ابدا ياسيدتى ..

فأدارت جاكلين وجهها قانطة ثم قالت : وهل تذكرين ما فعل بعد رحيلى؟

فانتفضت روز فزعا اذ مرت بخاطرها ذكرى تلك الايام السوداء، وقالت :

- وهل الى نسيان ذلك من سبيل ؟ لقد عراه ما يشبه الجنون، فكان يقضى اياما متوالية قابعا بغرفته لا يلقى احدا، ثم يخرج هائما على وجهه فلا يعود الا بعد وقت طويل، وهالنى أمره ذات يوم فدخلت اليه الغرفة مخالفة امره، واذا به امام الموقد يحرق رسائلك ودموعه تهمى كالغيث المنهمر.

كاد يغشى على جاكلين حين وقفت على قصة شقاء زوجها، فلقد جاءت وظلمات اليأس تغشاها من كل جانب، ولكنها تلمح الان بارقة من الامل والرجاء. أنها لموقنة الان أن زوجها كان يحبها حقا، وانها لترجو أن تجد بفؤاده اثارة من ذلك الحب تشفع بها لديه . وقالت بعد أن تمالكت روعها

- انبئيه أن سيدة تطلب مقابلته دون ان تذكرى من هى.

لم تجد الخادم مناصا من الاذعان، وتهافتت جاكلين على احد المقاعد وهى تستجمع شتات قوتها تأهبا لهذا اللقاء الرهيب.

وما كانت الرذيلة من طبيعتها. انما زلت بها القدم لانها كانت مرهفة الحس، متوثبة العاطفة. ترى الحياة بدون الحب عبثا لا نفع فيه. وكانت تحب زوجها بكل ما فى نفسها الحساسة من قوة، فلما رأته منصرفا عنها الى عمله. آلمها ذلك ألما عميقا. وظنت انه لا يحبها كما تحبه، فأضلتها كبرياؤها وقذفت بها الى هوة الاثم والعار، وسلبتها زوجها وولدها.

اجل ولدها ! شهد الله انها لم تفكر طوال تينك السنتين الا فيه، ولم تحلم بغير الساعة التى تجمعها به. وهيهات ان ينكر عليها هذا القاضى الجائر حقها في البقاء الى جانب ولدها المريض.

وتناولت الصورة مرة أخرى واخذت تقبلها وهى تغمغم بصوت محتبس :

– ولدي الحبيب ! لولاك ..

وعند ذلك فتح الباب ودخل زوجها.

الفصل الثالث – ضراعة

كانت مطرقة فلم يتبين فلوريو شخصها أول الامر. ثم رفعت رأسها وتلاقت ابصارهما، فامتقع وجهه امتقاعا شديداً. والمرأة المنكودة ترنو اليه بين الرهبة والامل. وما كاد يفيق من دهشته حتى هتف فى صوت غليظ : أنت ؟!

فأجابت فى ذل واستخذاء : أجل .. أنا ..

فصاح وهو يفتح الباب امامها : اخرجى ..

فرفعت جاكلين وجها كاسفا مغرقا بالدمع وقالت :

– سأذهب .. ولكن اعرنى بربك سمعك لحظة واحدة

قال – حسنا .. ماذا تريدين ؟ اسرعى

فجثت جاكلين ورفعت اليه يديها فى ذل قائلة : اصفح عنى يالويس !

أغلق فلوريو باب المكتبة بعنف، ثم وقف على رأسها ضاما قبضتيه. ولم تجرؤ على النظر فى عينيه المشتعلتين فأحنت رأسها حتى كادت تمس قدميه:

وضحك ضحكة قصيرة رهيبة ثم قال :

- أصفح عنك ! ان لى سنتين كاملتين لا تلاحقنى في الليل والنهار سوى صورتك بين ذراعى رجل آخر، وقبلاتك الدنسة على شفتيه الاثمتين. وبعد ذلك تسألينني الصفح والمغفرة ؟!

- لويس ! بحق ولدنا ..

- ففى .. حذار ان تنطقى باسمه ! انه ليس منك ولست منه .. انه لي .. وحدى ؟ هلا فكرت فيه يوم تركتنا ؟!

- بربك يالويس ! كنت مجنونة ! كنت .

فضحك مرة اخرى تلك الضحكة المريعة الهائلة وقالت التاعسة :

- أجل خنت زوجى وتخليت عن ولدى وتسللت من بيتى كاللص المريب بعد ان سلبته السعادة والهناءة، ولكنى كنت ذلك كله مذهوبة العقل، مسلوبة الرشاد. هذه هى الحقيقة !

- الحقيقة ! بل ضقت بحياة الزوجة الوفية والام البارة وحبب اليك الاثم والفجور. هذه الحقيقة !

وغلبه الحزن والشجن فاستطرد فى صوت متهدج !

- لم تحفلى بى مع أنى كدت أعبدك من دون الله، ومع انك كنت تزعمين انك تحبيننى !

وبلغ منه التأثر كل مبلغ فحاول الابتعاد عنها ولكنها تشبثت به وهى تهتف ملتاعة :

- بل كنت صادقة ولا ازال احبك يالويس. انما كانت علك البلاء اننا لم يفهم بعضنا بعضا. وما انكر جرمى او احاول التهوين من شأنه، فقد كنت تحبنى حبا عميقا صادقا ولكنى عميت من دلائله الواضحة. ثم انك جعلتنى جزءاً من

بيتك ولكـنك لم تجعلنى جزءا مـن حياتك. لم تتـعرف دخـائل فؤادى ونوازع نفسي، فكنت اشـعر في حضرتك بـالوحشة والانفراد. وكنت اهفـو الى ما فى الحـياة من لهـو ومتـاع. ولكنك لم تأبه لذلـك. كان لك اصـدقاؤك من رجـال القانون، أما انا لم يكن لى صديق، وكنت الى هذا كله حدثة دون العشرين! .

فتـهافت فلوريو على احد المقـاعد وقد هاضه هذا الحـديث الاليم، وأخفى وجـهه بين يديه وراح يئن انينـا موجـعا. وسـمعت جـاكلين انينه فنهـضت من جلستها فى مشقة وعسر، وسـارت اليه متحامله على نفسها وهى تحاول تسكين صدرها المضطرب، فأشار بيده نحو الباب دون ان يرفع رأسه.

وهتفت المنكوده في قنوط :

- لويس ! أنك لا تحكم على شر المجرمين قبل وزن مـلابسات جريمته، وما ينبغي لها من الاثر فى تخفيف عـقوبته. فكيف تضن على بنصيب من عدلك ؟ لست اجادل فى شناعـة جرمى وهوله، ولكن كان في وسعك ان تعـصمنى من السقوط لو اردت. لقد اقسمت امام الكاهن ان تحـبنى وتحترمنى وتحميني، فهل بررت بالقسم ؟ احبـتنى حقا. ولكنك لم تحترمنى اذ جعـلت وقتك وقفا على عملك، وصحبـتك وقفا على اصدقائك. ولـم تحمنى كـذلك، فقد جئت بذلك الرجل الى بيتنا زاعـما انه صديقك، وعقدت اسباب المودة بينى وبينه، وتركت له مرافـقتى الى كل مكان اريد الذهاب اليـه لكى تتفرغ لعـملك وتتوفـر عليه. وهكذا حل من حـياتى مكانا ينـبغى ان يشـغله سواك، وراح يتـقصى خلجـات فؤادى ويتحرى اسباب سـرورى ورضاى. ولقد كان في وسعك ان تنقذنى من جنونى لو وهبـتنى قسطا من عنـايتك وجعلت لى حظا من وقـتك، واشعـرتنى أننى لست في نظرك أكثر من دمية تلهو بها اذا لم تجد شاغـلا سواها، وهيهات ان تعرف كم جاهدت هواى وعصيت نفسي..

وخنقتها العبرات، فراحت تنشج نشيجا مؤلما، ثم استأنفت الكلام قائلة :

- الا تذكر كيف سألتك قبيل تلك الليلة المشئوكة ان تصحبنى الي حدائق

فونتنبلو فأبيت ؟ لقد صحبته، فما كادت تحتوينا الحديقة حتى اخذ يقبل يدى وأهداب ثوبى ويقسم انه لا يحجم عن قتل نفسه بين يدي ان لم اجزه عن حبه بحب.. وعدت هاربة منه ومن نفسى الجائشة المضطربة فألفيتك عاكفا على عملك، ورحت الح عليك فى الخروج معى وانا لا ابتغى سوى تجديد ما رث من حبنا بتركك واغفالك، فماذا كان جوابك ؟ قلت ان بين يديك مهاما خطيرة، وأشرت على باستصحاب صديقك ليسيل.. وهكذا دفعت بى اليه دفعا، وسددت في وجهي كل باب الى النجاة !

وانطرحت على قدميه باكية وهى تقول :

– لويس .. كان في وسعك ان تنقذنى حينذاك !

ظل لويس قابعا فى مقعده كأنه يصغى الى قضية لا تتصل بعواطفه، ولا ريب ان الاسراف فى تقدير الواجب وتقديسه يفعم القلب قسوة وغلظة، ويجرد النفس من جميع مشاعر الرفق والرحمة، بل ان هذه النفس الضالة المفتونة لتجد لذة وحشية منكرة اذا رأت يد العدالة المجردة من الرحمة تبطش بالحياة الانسانية نفسها، أو بما يحبب الحياة الى الاحياء. ولو جاءت جاكلين منذ شهر واحد لما استطاعت زفراتها المحرقة ودموعها الساخنة ان تمس فؤاد فلوريو ولو مسا خفيفا، ولكن ولده لا يزال طريح الفراش اثر مرض كاد يؤدى به، والمحن والالات تلين من قسوة القلوب المتحجرة، وتطامن من كبرياء النفوس المتجبرة، وها هى يدها تمس ركبتيه ورأسها تمس ذراعيه، فتمثل في خاطره ذكرى الشعر الفاحم منتشرا بجانبه على الوسادة البيضاء فى ضوء القمر وغبش الفجر، وتبعث فى نفسه الحب والحنين.

ولكنه لا يلبث أن يذكر أن هذا المنظر كان متاعاً لرجل أخر سنتين كاملتين فتغلى فى صدره مراجل الحنق والغيظ، وتتدافع بين جوانحه العواطف المتنافرة تدافع الموج الصاخب، وهو حائر متورد لا يدرى ايقسو عليها ام يرفق بها.

وأخيرا نهض متثاقلا وهو يقول فى صوت ضعيف متردد :

- جاكلين ! يجب ان تذهبى ..

فهتفت التعسة فى يأس :

- ويح نفسى ! كان خيرا لى قتلتنى فى تلك الليلة المشئوكة رحماك يالويس ! الى اين اذهب ؟

- اذهبى اليه !

- لقد مات كما كتبت اليه..

وقع قولها عليه وقع الصاعقة، فانتفض غيظا وصاح بها :

- مات ؟ هذا اذن سبب عودتك !

فقالت مرتاعة : كلا .. كلا ..

- لقد كدت انخدع بدموعك الكاذبة، فتبسا لى من غر احمق ! لقد مات العشيق فلجأت الى كنف الزوج المغفل!

فبسطت يديها متوسلة : رحماك يالويس.

- هيا .. ! أخرجي من هذا البيت.

- لست كاذبة يالويس .. دعنى ارى ولدى.

- لقد نسيك ..

- دعنى اقبله .. مرة واحدة ..

- انه يحسبك فى عداد الاموات ..

فهرعت اليه الام الشقية مذعورة ملتاعة وصاحت بصوت تنفطر له القلوب:

- كلا .. كلا.. لست جادا فيما تقول .. محال ان تدخل فى روعه هذا الاعتقاد الكاذب ! لقد كنت تحبني .. وأنا لا ازال زوجتك.. وأمه !

- لقد اختفيت من حياتى وحياته .

تهالكت المنكودة على الارض فانهضها فى قسوة ودفع بها الى الباب وهى تنتحب، الم اقفل الباب وراءها وامسك بمقبضه حتى لا تعود. ولم يلبث ان

سمع صوتا بين حشرجة المحتضر وانين المتألم وهى تبتعد.

الفصل الرابع - فاتحة الدفـــاع

مال فلوريو على الباب منصتا وهو يرجو ويخشي ان تعود في آن واحد، ثم تحامل على نفسه الى المقعد والقى رأسه بين ذراعيه على المنضدة فوق الصورة التى كانت تقبلها.

لقد ربح المعركة ولكنه يعلم ان سعادته كانت في الهزيمة !

ثم هتف كأنه يغالب عاطفة متمردة تكاد تغلبه على آمره :

- كلا .. يجب الا تعود.. الهم هبنى قوة على النسـيان ! وسمع وقع اقدام فلم يكد يجفف عـرقه المتصـبب حتى اقبل الدكـتور شينيل مـتهللا بما رأى من تقدم رائع فى حالة ريمون، ولكنه لم يكد يرى وجه صديقه حتى هتف مرتاعا :

- ماذا حدث ؟ أمريض انت ؟

أجاب فلوريو في مرارة !

- لقد كـانت زوجتى هنا الان وفى وسعك ان تقـدر ما يحتـدم فى صدرى من العواطف والانفعالات..

ثم هب واقفا وصاح ضاما قبضتيه :

- كلا .. ليس فى وسعك ذلك، لقـد عبرت خـلال هذه الدقائـق الخمس خـمس سنين كامـلات من حيـاتى بما فـيهـا من سعـادة وشـقاء وتتـابعت على خاطرى صور غرامنا السعيد وخيانتها الهائلة..

فمس الـدكتور شينيل ذراعه مـواسيـا ومازال به حـتى هدأت ثائرته شيـئا فشيئا.. ثم فتحت روز الباب قائلة :

- وصل المسيو لويل ياسيدى ..

فأجاب فلوريو ادخليه ياروز..

ثم انثنى الى الطبيب قائلا:

- ان نويل هذا صديق قديم عزيز كنت حتى هذا الصباح اظنه فى عالم الاموات.

وهنا دخل شاب قوى البنية تدل هيئته على انه اصغر من فلوريو بعدة سنين وان عبث البياض بشعره. وهتف عند دخوله : هأنا ياصديقى !

كانت عيناه الزرقاء مشرقتين باسمتين، ولكن بوجهه سمات ذلك الهم الدفين الذى يعصف بالنفس ويأبى الا الظهور مهما بولغ فى كتمانه، كما بخده الايمن اثر جرح قديم يمتد الى جلده الراس.

وعانقه فلوريو عناقا حارا طويلا، وبعد ان قدمه الى الدكتور شينيل وذكر له ما فعله الطبيب من انقاذ ولده، قال وهو لا يحول بصره عن وجهه :

- انك تتمتع بصحة لا يحظى بمثلها الموتى !

فأجاب لويل مدهوشا:

- وهل بلغك نبأ شروعى فى الانتحار ؟

- أجل، وذكرت الصحف انك مت فعلا.

فقهقه نويل وقال :

- ان الخبر مبالغ فيه كثيرا كما يقول رجال الحرب، لقد اطلقت على نفسى رصاصتين حقا. ولكن رأسى صلب كما تعلم فلا تكفى رصاصتان لقتلي، بيد ان لاحد الاطباء رأيا اخر اذ زعم اننى لا يمكن ان اجيد الرماية الى درجة اصابة مخي مهما اجهدت نفسى في المران، فلما اضحكنى قوله ايقنت اننى لن اوفق الى الانتحار ما دمت اجد في الحياة ما يغرينى بالضحك.

وضحك الصديقان، وبعد انصراف الطبيب اخذ نويل يتفرس في وجه صديقه الذى قال :

- ان الحياة فيما يبدو لم تكن اراف بك وأرحم، لقد انقضي على فراقنا خمس سنين وكنا فيما غبر من ايامنا نستعظم فراق خمسة اسابيع ! ولكنى أتلهف الى سماع اخبارك..

لماذا حاولت الانتحار؟
فرمقه نويل بنظرة سريعة فاحصة ثم اطرق قائلا : كانت امرأة !
- طبعـا .. وقد ادركت ذلك قبل ان ترحل بزمن طويل حين رأيتك حليـفا للكابة والعبوس.. هل كانت تحبها حقا؟
لم يحر نويل جوابا، ولكن نظراته كانت تغنى عن كل جواب.
وقال فلوريو هل خانتك؟
- لم تشعر بأنى احبها ..
- ولماذا لم تصارحها بهواك ؟
فأجاب لويل وهو يتحاشي نظرات صديقه :
- كانت تحب رجلا آخر، فلما تزوجا ضقت بالحياة وحاولت الخلاص منها فلم افلح.
عمل طائش .. اليس كذلك ؟
ثم أردف فى لهجة تشف عن اسي دفين:
- لقـد كنت متـهما دائمـا من اهلى بالحـماقـة والغباء، كـما كنت مـوضع سخـريه اقرانى فى المدرسة. فكان خليـقا بى ان اعلم ان الفتاة التى احـبيتهـا قد وهبت من صدق النظر مـا يحملها على ايثـار غيرى. ولكنى تجـاوزت كل حد الحماقة والغباء اذ حاولت الانتحار!
- وهل كانت اصابتك شديدة ؟
- كانت شديدة جدا ولكن سرعان ما شـفيت. ولـم أجد بعد ذلك ما يهون على عبء الحياة سوى الطواف بالارض فى التـماس النسيان. ثم انصرفت الى الكد والعمل فجمعت ثروة طائلة من تجارة الفرو في كندا.
فقال فلاوريو : ولماذا قطعت عنى اخبارك ؟
- أردت ان ينسانى الناس وانساهم. ولقد اذاعت الصحف نبأ موتى ولكنها لم تر في حيـاتى ما يستـحق تصحـيح خبرها الاول، فـأثرت ان اظل ميتـا حتى

تطيب لى العودة الى عالم الاحياء. ولكن لنتحدث عنك : اسعيد انت؟ كيف حال جاكلين؟ الا تنبئها بحضورى لكى ارى تأثير المفاجأة عليها عندما ترانى ؟

فقال فلوريو بصوت خافت مضطرب :

- لن تراها..

- اغائبة هى ؟

- اجل .. ذهبت..

فردد نويل مبهوتا : ذهبت

وابتعد فلوريو عن صديقه حتى لا يرى وجهه وقال:

- هجرتنى منذ سنتين.. الى خليلها!

ظل نويل يحملق فيه معقود اللسان ثم غمغم فى حزن:

- مسكينة جاكلين!

فارتد اليه فلوريو هاتفا: اترثى لها؟

ورفع نويل حاجبيه وقال فى هدوء : الست هى أحق بالاسف والرثاء؟

قال فلوريو بحزن :

- أهذا رايك ؟ ما قولك فى اذن وقد احببتها حبا يقرب من العبادة فنكثت بعهدى وعبثت بشرفى ووكلت بى الهم والشقاء؟ انك ترانى شيخا واهنا وما أربيت على الخامسة والثلاثين، وانك لتعرف الان سبب هذا الضعف والوهن.

وتهاوى على أحد المقاعد مرتجفا فراح صاحبه ينظر اليه فى حزن ثم قال في حنان:

- ولكنها مع ذلك لم تكن بطبعها شريرة سقيمة الوجدان، ولعلها تعود اليه يوما نادمة مستغفرة.

- لقد رأيتها ثانية.

فسأله نويل فى دهشة : هل عادت اليك ؟

وانتصب فلوريو واقفا وهو يتلظى غضبا وقال: لقد تجرأت اليوم فجاءت

تسألني الصفح والاذن لها فى البقاء معى ومع والدى!

- وبم أجبتها ؟

- أمرتها بالانصراف.

- هل طردتها ؟

- طردتها ؟ طبعا طردتها.

- لقد اقترفت اثما شنيعا اذ قذفت بها الى عرض الطريق وحيدة شريدة، ولن تشرق شمس الغد حتى تعض بنانك ندما.

وقف فلوريو لحظة واجما لا يستطيع نطقا ونويل ينظر اليه صامتا. ،استطاع بعد جهد شديد أن يسيطر على اعصابه الثائرة المضطربة، فالتفت الى صديقه بعينين تفيضان الما. وقال فى هدوء :

- ألا تجلس ياصديقى العزيز ؟ ان لى إليك حديثا طويلا.

الفصل الخامس - الاتهام

عندما اخذ فلوريو نفسه بكتمان الكارثة التى حطمت حياته، لم يكن يدرى أن الرجل الذى يمكنه ان يبثه نجواه حى يرزق. وما أشد حاجته الان الى المواسى الشفيق. ولا سيما بعد أن زعزع نويل ثقته بصواب ما فعل، وبعد ان انس من نفسه التردد والحيرة أمام توسلات زوجته.

وجلس نويل بينما راح فلوريو يذرع الغرفة كأنه يستجمع قواه ثم قال:

- لقد بدأت ياصديقى بالدفاع عنها قبل أن تقف على جلية أمرها لانك كنت تعرفها منذ خمس سنين قبل زواجها. ولكن الزواج يغير الطباع والاخلاق، وقد صارت جاكلين أمرأة اخرى غير التى كنت تعرفها.

كان فى يديها هناء أسرة وحياة بيت، ولكنها لم تتردد فى التضحية بزوجها وولدها على مذبح نزوة جامحة وهوى آثم. وهيهات أن أجد شيئا من العزاء فى الاعتقاد بأنها قضت على نفسها حين قضت علينا، لأنى لا ازال احبها.

ولانها ظلت تحبني سنة كاملة!

ولكن حماية ولدى فوق كل اعتبار، وينبغي الا يعرف قط أنها على قيد الحياة، أو يقف على قصة أثمها وعارها؟

تململ نويل في مقعده من هذه العبارة، ولكن فلوريو لم يفطن الى ذلك ومضى في حديثة قائلا:

- كنت في السنة الأولى من زواجنا ارى انني السعيد حقا دون الناس أجمعين، ثم ولد ريمون فخيل الى انني لم اعرف ما السعادة قبل مولده. وضاعفت من جهودى في عملي لكي أشيد لزوجتي وولدى مستقبلا زاهرا.

ورقيت الى المنصب الذى اشغله الان وأنا اعده اول خطوة في طريق التقدم والارتقاء. ثم حدثت فضيحة وزارة المالية ولا ريب انك سمعت بها، فلم اكد ابدأ التحقيق فيها حتى ايقنت ان ثمة عصبة من الأئمة الاشرار، قد أحكمت سلسلة من الادلة والقرائن لاتهام شاب ذكي اريب يدعى «البير ليسيل». ولكن زملائي جميعا خالفوني في رأيي وزادوا مهمتي مشقة وعسرا. ولكن استطعت في النهاية اثبات صواب رأيي. ولعلك تذكر كيف لصقت الفضيحة بطائفة من كبار الموظفين كانوا قبل ذلك موضع الثقة والاحترام.

كانت هذه القضية لي فوزا باهرا وان لم يعرف الدور الذى اضطلعت به سوى الدوائر الرسمية. بيد أن ليسيل كان يعلم انني صاحب الفضل في انقاذه، فأثملتنا نشوة الفوز يوم اطلاق صراحه ، وأبيت الا ان نحتفل بذلك النصر العظيم فاستصحبته الى بيتي لتناول العشاء.

ولقد كانت السهرة رائعة ممتعة. كما كان ليسيل ظريفا حلو الحديث. وكنت ارى بجاكلين في الشهور الاخيرة شيئا من القلق والانقباض، ولكنها عادت في ذلك المساء الى سابق عهدها من المرح والانشراح. وبعد الطعام ذهبت الى مكتبتي لانجز بعض الاعمال العاجلة وتركتها معا. وأني لاذكر الان كيف كنت ابتسم راضيا عندما تترامى الى سمعي ضحكاتهما.. ألا ليت الخمر

استحالت فى جوفه سما زعافا!

أكثر بعد ذلك من زيارتنا، وسرنى أن تجد جاكلين ما يسرى عنها الوحشة والانقباض، وكان النذل لا يفتك يشيد بفضلى ويردد آيات شكرى، فكيف كان يسعني ان اشك فى مقاصده ونواياه ؟

وكنت اترك له مرافقة جاكلين الى حلبات السباق وأماكن اللهو، اذ لم تترك لى مشاغلى الجمة فراغا لذلك، ولكن جاكلين لم تزدد مع هذه الصداقة الجديدة الا تعلقا بى والحاحا على فى الخروج معها. فاذا ما افهمتها ان هذا امر لا سبيل اليه زمت شفتيها وانثنت مغضبة حتى يجيئ ليسيل فأطلب اليه الخروج معها.

لقد كانت تزداد تظاهرا بالحب لى كلما امعنت فى الاثم مع ليسيل لتتقى ما قد يتسرب الى نفسى من الريب والظنون.

واخبرتها ذات يوم أن لدى مشاغل تضطرنى الى التخلف عن العشاء والعودة متأخرا. ولكنى لم اجد تلك المشاغل على ما كنت اتوقع فعدت إلى بيتى قبل الموعد المنتظر. وتسللت دون أن يشعر بى أحد لافاجئها بعودتى، فيالهول تلك المفاجأة.

وتخاذلت ساقاه فتهاوى على احد المقاعد وهو يئن الما. وبعد لاى استطاع مواصلة الكلام فقال:

- أسأل الله ياصديقى ان يجنبك مثل ما اصابنى عندما فتحت باب الغرفة فرأيتهما معا!

ويقيى ان تلك الصدمة هزت عقلى هزا عنيفا، فقد استندت الى الباب ورحت احملق فيهما ذاهلا شارد اللب ووثبا من مكانهما وراحا يحملقان الى كذلك وفى وجههما آيات الهول والهلع. ولعلهما حسبا اننى اريد التشفى قليلا قبل أن اقتلهما ولكن اتعرف ياصديقى فيم كنت افكر فى تلك اللحظة؟ لقد كنت افكر فى أن خلفها مقعدا قريبا جدا من الاريكة فلو مالت عليه لسقط

على الاريكة واحدث بها تلفا ! كان عقلى يابى أن ينشط من عقال الدهشة والذهول لاستقبال المنظر الهائل الذى تقع عليه عيناى!

ثم افقت من ذهولى قليلا فاستطعت التفكير فى قتلهما.. وانحنيت متخبطا الى مكتبى فلما عدت بمسدسى كانت الغرفة خالية.

وعند ذلك انجابت عن ذهنى غشاوة الذهول والجمود، فهرعت الى الخارج غير عابئ بالامطار المتساقطة، واخذت اعدو عارى الرأس لعلى اكون فى اثرهما فالحق بهما.

وأمسك عن الكلام ليجفف من عرقه المتصبب، وعلا صوته عندما انتقل من ذكر الامه واحزانه الى الحديث عن موجدته وسخطه وقال:

- وما اذكر شيئا مما حدث فى تلك الليلة الهائلة، اذ لم اكن اشعر بغير المطر يصك وجهى وانا اركض مسرعا على غير هدى. ووجدت نفسي عند البلاج الفجر بشارع قذر في مولمارتر، فلما تنفس الصبح افرغت نسماته على شيئا من السكينة والهدوء.

اخذت مركبة وقفلت عائدا، ورحت خلال الطريق استعرض الامر من جميع نواحيه فآليت ان يكون ما بقى من حياتى وقفا على الانتقام، والا اكف عن مطاردتهما او اظفر بهما.

وبلغت المنزل فى أسوأ حال فصعدت الى غرفتى واغتسلت وارتديت احسن ثيابى. ثم خرجت للبحث عن الهاربين بعد ان ارسلت الى مكتبى بأنى سانقطع بضعه أيام.

أنفقت ذلك اليوم في الطواف بالمقاهي والاندية التي يختلف اليها الغادر الاثيم ولكنى لم أقف له على اثر، وعدت فى صباح اليوم التالى خائبا مكدودا. وفيما انا اتهيأ للخروج لمواصلة البحث لقيتنى روز بباب المكتبة تحمل الطفل، فطاش صوابى وخالجتنى رغبة عنيفة ثائرة فى قتل الطفل لانه ولدها. ولكن هذه الرغبة لم تدم الا ما تدوم ومضة البرق، ثم تلتها غصة اليمة كادت تكتم

انفاسى حينما ادركت حق الادراك هول الكارثة التى حلت بى..

ولابد ان أكون عدت الى غرفتى واغلقت بابها قبل ان يغمى على، فقد رأيت عندما ثبت الى رشدى الضوء ينساب من النافذة وانا متسلق على فراشي. وبعودتى الى الرشد عاودني ذلك العذاب الذى لم يفارقنى بعد ذلك قط.

وما أحاول وصف الايام القلائل التالية، فقد تولانى الذهول والاستغراق وعفت الطعام وجفانى الغمض. وكم همست باطلاق الرصال على نفسى لولا اننى كنت اذكر الطفل فتسترخى يدي وارد المسدس الى مكانه وانا اذرف الدموع لعجزى عن التخلص من هذه الحياة المرة الشقية.

وأخيرا عولت على احتمال الحياة من أجل الطفل مهما تكن شاقة مضنية، فأحرقت ما كان لدى من رسائلها وصورها، وخرجت الى معمعان الحياة المرة.

وضحكة جافة ساخرة، ثم رفع الى نويل وجهه الكاسف الحزين وقال:

- والآن ياصديقى .. اينا احق بالعطف والرثاء؟

الفصل السادس- ختام الدفاع

صمت نويل لحظة كأنه لم يسمع سؤال صاحبه وهو يستر عينيه براحتيه، ثم نهض متثاقلا كمن يفيق من ثبات عميق ووضع يده على ساعد صديقه قائلا:

- لسنا فى حاجة ياصديقى الى عبارات المجاملة والعطف فانك تعلم كم أتألم لالمك. ولكنى انظر الى هذا الامر من ناحية اخري، وقد أيقنت قبل سماع قصتك ان جاكلين اتت امرا عظيما. على انها قد لقيت جزاءها العادل وندمت على ما فعلت..

فهتف فلوريو ساخرا. وسأل نويل:

- لماذا عادت اليك اذا ؟

- لقد نسيت ان اخبرك ان عشيقها قد مات ! لن تدخل هذا البيت!

قال نويل فى هدوئ : انها زوجتك
- لن تجاور ولدى
- ولكنه ولدها ايضا وعليك تبعة كل ما يحدث لها.
فحملق فيه فلوريو مفكرا وهتف :
- أنا ! امسئول انا عنها ؟
- بلا ريب. أى شئ تحجم عنه الان هذه المرأة الشريدة؟
- ماذا دهاك يانويل ؟ لقد حطمت هذه المرأة حياتى.
اليس لى شئ من الحقوق ؟
فقال نويل وهو يضحك ساخرا :
- حقوق ! أى حق لك فى القضاء على هذه المنكودة بحياة الدنس والعار؟ لا ريب أن لك الكمال والعصمة دون الخلق جميعا والا ما طوع لك ضميرك ان تقسوا إلى هذا الحد على سواك! حقوق !هه .. وما قولك فى الواجبات ؟ اكنت حريصا على أداء واجباتك مثل حرصك على حقوقك ؟ لقد كانت جاكلين فتاة غريرة فهل وقيتها المزالق والاخطار؟ انك مقر بأنك القيتها فى طريق شاب فاتن جذاب لكى تلقى على كاهله بعض ما عليك من الواجبات.
ثم أمسك لويل عن الكلام ونظر اليه وقد أثقله هذا الاتهام فلم يحر جوابا. واستطرد نويل قائلا:
- مالك لا تجيب ؟ الانها قد زلت مع انك مهدت امامها سبيل السقوط ؟! تقذف بها من حالق وتغلق دونها بابها ثم تزعم انك كنت تحبها؟!..
- شهد الله اننى احبها ..
- اقسم انك لم تحبها قط. ان الحب اقوى من الحقد ولا يأبى المغفرة والتضحية. انك لم تحب جاكلين ياصديقى بل راقك ما فيها من رشاقة وفتنة وجمال. وهو حب لم يستطع ان يحملك على التجاوز عما فيها من الضعف والوهن. ولو احببتها حقا لما ضاق عفوك بذنبها. فان الحب الصادق يخلق

المعاذير خلقا.

فصاح فلوريو مغضبا : ما عساك كنت تصنع لو كنت مكانى؟..

- لا ادرى على وجه التحقيق، فانى عرضة للخطأ كغيرى من بنى الانسان. ولكنى أعرف ما ينبغي ان تفعل انت.. لقد حكمت بالفراق على الام وولدها، وبدلا من ان تمد يدك لاقالتها من عثارها. دفعت بها الى ذلك المنحدر الذى تعرف كما اعرف الام ينتهى.. انت من رجال العدالة، وما تجهل ان العقوبة يجب ان تتكافأ مع الجريمة، وقد كانت زوجتك تحبك وانجبت لك ولدا، ثم زلت بها القدم فعادت اليك مستغفرة. وبرغم هذا حكمت عليها بالشقاء واليأس.. والموت!..

واخذ الجزع يحل في نفس فلوريو محل الغضب، فقال في صوت متغير:

- كلا .. كلا ..

فقاطعه صديقه قائلا :

- بل هو الحق.. ما عسى ان يكون مصيرها ؟ ستضطر الى اتخاذ العشيق بعد العشيق، وستهوى الى التحضيض الدنس والعار ، فعلى من تقع التبعة؟

لم تفكر فى شئ من هذا، ومع ذلك تعد نفسك رجلا شريفا وزوجا كاملا وابا لا عيب فيه ! لئن ابيت ان تؤدى واجبك يافلوريو فتالله لاؤدينه عنك.. ستجد زوجتك فى بيتى المأوى الذى تاباه عليها، وسأقف حياتى عليها دون ان اتقاضاها لقاء ذلك شيئا.

ووقف الرجلان ينظران الى بعضهما صامتين، ثم قال فلوريو فى صوت بطئ فاتر:

- أراك تتجاوز حدود الصداقة يانويل ..

- ان شأنى فى هذا الامر اكثر من شأن الصديق..

واشرقت الحقيقة فى ذهن فلوريو بغتة، فكاد يغص بريقه وهو يقول:

- لويل .. جاملين .. هى المراة التى كنت تحبها؟

- نعم هى .. وكنت لها اكرم منك حبا..

وارتد فلوريو الى مقعده متخاذلا معقود اللسان.

جاكلين .. هى المرأة التى حاول نويل الانتحار من أجلها!

ونكس الزوج التعس راسه مخذولا، أتراه اخطأ وجار عن القصد أكان ينبغى ان يستجيب لنفسه عندما نازعته الى الصفح والغفران وجاكلين تبلل قدميه بدموعها؟

ومضى نويل فى الكلام قائلا:

- أحببتها قبل اقترانك بها بزمن طويل. وكلما حاولت مصارحتها بحبى عصانى لسانى خوفا من ان يكون جوابها غير ما اود، وكنت ارتحل المرة بعد المرة لعلى اجد فى الاسفار ما يشفينى من ذلك الهوى. فلا ازداد على البعد الا هياما ووجدا..ثم رأيتها تميل اليك فحاولت مصارحتها بحبى مرة أخرى فعجزت، وقررت من جديد عاقدا عزمى الا اعود.. ومازلت اقطع البلاد حتى بلغت مسينا وأردت الابحار الى الشرق فلم تطاوعنى نفسى، وفى اليوم التالى وجدت نفسى فى القطار الذاهب الى فرنسا وانا لا اكاد افقه ما افعل، وما كدت اقترب من دارها حتى علمت بخطبتكما.

ولقد كان وقع هذا النبأ على اشد من الكارثة التى حلت بك، فجلست ليلة بأكملها والمسدس فى يدى اعتزم احد امرين: أأقتلك وحدك أم اقتل نفسى معك؟

وانك لتعلم ياصديقى الان اننى انتهيت الى التضحية بنفسى فى سبيل صداقتك، فحاولت الانتحار حتى تنعم بالعيش مع المرأة التى كنت احبها.. ولكن ما فائدة التضحية فى سبيل من لا يقدرها؟ .

لو خطر لى ان جاكلين ستصير يوما الى هذا المصير المؤلم الذى قضيت به عليها الليلة لافرغت فى رأسك تينك الرصاصتين اللتين اطلقتهما على نفسى .

وكف عن الكلام فجأة، فكان الصمت افعل بنفس فلوريو من تلك

الكلمات الشديدة الصارمة، ورفع هذا رأسه فى استخذاء قائلا :

- وماذا ترى أن افعل ؟

فهتف نويل فى ازدراء : تفعل؟

ثم اسرع الى الباب وهو يقول:

- انى ذاهب للبحث عن جاكلين.. اذاهب انت معى؟

وقف فلوريو هنيهة مترنحا ثم سار الى صديقه مادا يده فقبض عليها نويل فى لهفة وحرارة، ثم غادرا البيت دون ان يتفوها بكلمة.

الفصل السابع - التائهــــان

أرأيت ذلك اليهودى المنكود الذى لعنه المسيح فيما تروى بعض الاساطير. وقد حلت به اللعنة فنهض عن مقعده هلعا مضطربا، وهام على وجهه فى المهامة والفلوات؟ أرأيت اليه وقد برح به السير واجهده الجوع والظمأ. ثم لمح سرابا يلمع من بعيد فتحامل على نفسه نحوه حتى اذا ما بلغه رأى بدلا من الماء القراح صليبا مرفوعا ليسخر منه ويذكره بسوء فعله ؟ بل ارأيت اليه وقد ضاق بهذا البلاء الشديد والشقاء الدائم فارتمى على الارض يطلب الموت والموت يمعن فى النأى والفرار ؟..

هذه هى الصورة التى كانت تعرض لفلوريو خلال الستين السوداء التى تلك تلك الليلة المريعة الهائلة وقد قيل ان جحيم الدنيا يصلاه الرجل الذي يعود الى بيته الموحشن بعد دفن زوجته وهو لا يفتأ يسأل نفسه، الم يكن هو السبب فى موتها؟ ولكن اشد من هذا الجحيم وانكى ان يعتقد الرجل انه المسئول عما انحدرت اليه زوجته من الدنس والعار، وهذا هو الفراش الشائك الذى كان يتقلب فوقه لويس فلوريو كل ليلة من ليالى حياته الناعسة الطويلة.

ولقد خرج مع صديقه لويل وهما يعتقدان ان الاهتداء الى جاكلين لن يستغرق اكثر من ثمان واربعين ساعة. وعلما من ناظر محطة باسى أن أمرأة

تنطبق عليها اوصافها استقلت القطار الى باريس منذ لحظة قصيرة فهانت فى نظرهما المهمة وسهل المطلوب، وظلا طوال الليل يبحثان فى المطاعم الراقية والفنادق الكبيرة على غير طائل وكان يجول فى نفس كل منهما خاطر رهيب هائل لا يجرؤ على الافضاء به، فلما تنفس الصبح جلسا لتناول طعام الافطار وهما يحرصان الا تتلاقى ابصارهما.

وارغم لويل صديقه على احتساء بضعة اقداح من القهوة وكأسين صغيرتين من النبيذ ولما رأى الدم يسرى فى وجهه الشاحب قال:

- هناك مكان واحد يجب ان نطرقه قبل كل شئ يالويس فحملق فيه فلوريو مرتاعا وقرأ لويل ما يعتلج فى صدره فقال:

- لا اظنها تقدم على ذلك وولدها على قيد الحياة يجب ان نتأكد.

كانا يخشيان ان تكون جاكلين قد القت بنفسها فى نهر السين، فقصدا الى معرض الجثث ولكنهما لم يجدا الجثة التى كانا يخشيان وجودها، فغادرا المعرض وهما يحمدان الله.

وانفقا نهارهما فى بحث دائب شاق واستعانا بإدارة الأمن ثم عادا إلى باسى لتناول العشاء وتمضية الليل فى الراحة والاستجمام.

وكان نويل يتكلف البشاشة والتفاؤل حتى لا يهيض جناح صاحبه. ولكنه كان يشعر فى قرارة نفسه منذ انقضى النهار بأن المهمة عسيرة شاقة، وانهما لن يهتديا الى جاكلين الا بمحض الصدفة والاتفاق، وأن اخذ نفسه بموالاة البحث عنها مادام حيا.

أما فلوريو فقد تولاه الخوف واستبدت به الوساوس، وراح يقترح الخطط والوسائل التى يعلم انها لا تجدى ولا تفيد. ولكنه كان يؤثر الحركة مهما خلت من النفع على هذا السكون الممض البغيض. ولم يجد لويل سبيلا الى تسكين نفسه الجائشة المضطربة سوى اكراهه على الاكثار من الشراب حتى استغرق فى نوم عميق لم يستيقظ منه الا حين نبهه نويل بعد ظهر اليوم التالى بقليل.

وانقضت الايام ثم الشهور ثم الاعوام دون ان يظهر للمرأة المفقودة اثر منذ غادرت محطة باسي. ووفى نويل بعهده فوقف حياته على البحث عنها، وراح يطوف بمختلف المدن والعواصم فى شتى الاقطار، مستعينا بدوائر الشرطة، مترددا الى البغيا لعله يجد عند احداهن خبرا عنها. ولكن جهوده ضاعت سدى واختفت جاكلين.

ولم يستطع فلوريو اعتزال عمله والتفرغ للبحث حرصا على مستقبل ولده، ولكنه كان ينقطع عن مكتبه للبحث عن زوجته كلما سنحت له الفرصة..

وكان الصديقان على اتصال دائم لتبادل الآراء والتشاور فى الخطط مهما بعدت بينهما الشقة، فكان فلوريو يقصد الى عواصم أوروبا باحثا منقبا، بينما يكون نويل فى الجانب الاخر من العالم...

وكم من مرة خيل الى الزوج التعس انه يلمح امرأة لها مثل قامتها، او يسمع من خلفه صوتا كصوتها، فاذا ما هرع الى ذلك الخيال العابر واجفا ملهوفا، لم يعد الا وفى فؤاده لوعة اليهودى التائه حين يجد بدلا من الماء صليبا ساخر!

وكأنما ابت الهموم والاحزان الا ان تأخذ عليه السبل والمسالك وتحرمه الهدوء والاستقرار، فأخذ ولده ريمون يزداد شبها بامه كلما انقضت الاعوام..

وحباه ابوه بكل ما يستطيع من الحب والرعاية، وورث الابن شغف ابيه بالمحاماة، فلم يتم الرابعة والعشرين حتى نال اجازة التمرين امام المحاكم الفرنسية. وكان الاب اذ ذاك قد عين رئيسا لمحكمة طولون. فلم يكن ثمة بد من افتراق الابن عن ابيه. وعلى ذلك بقى ريمون فى بوردو ومعه روز تشرف على شئون البيت.

في ذلك الحين كان ثمة رجلان لم يسمعا باسم احد من اشخاص هذه القصة سوى مسيو فلوريو الذي كانا يظهران له اشد الاحترام. ويضمران له

اشد المقت والبغضاء..

جلس هذان الرجلان ذات صباح وكتبا رسالة كان لها من الاثر ما لم يخطر ببالهما او يعلق بخيالهما.

الفصل الثامن - مهمات سرية

كان قد مضي على اختفاء جاكلين نحو عشرين عاما عندما وصل مسيو روبير هنرى بريسار وزميله العزيز مسيو موديست مريفيل الى مكتبهما بشارع صغير لا يبعد كثيرا عن سراى العدل حوالى الساعة التاسعة صباحا كعادتهما. والرجلان حريصان اشد الحرص. فهما لا يذهبان إلى المكتب او يغادرانه الا فى مركبة. وهما ينزلان من المركبة دائما قبل ان تبلغ الدار التى يقيمان بها.. وفى سبيل الاختفاء والتوارى عن انظار الفضوليين، اتخذا لهما مسكنا بشارع من احط شوارع مونمارتر.

وما كان مظهرهما ليدل على انهما يقيمان باحط احياء باريس، بل لقد كانا يسرفان فى العناية بمظهرهما اسرافا يثير شك الملاحظ الذكى اللبيب،

وقد تبدو هذه المبالغة فى الاحتياط غريبة، ولكن علاقتهما بالمجتمع تستوجب اشد من هذا الاحتياط لو كان ذلك فى الامكان، فقد كانت مهمتهما فى الحياة هى الاقتصاص لكل مخالفة للشرائع السماوية الواضعية، وتتبع الذنوب التى تغفل عنها عيون حفظة الامن او يعفيها القانون من العقاب. وفرض أفدح الغرامات على مرتكبيها.. وهى مهنة تدر عليهما ارباحا طائلة، ولكنهما لا يجرآن على الظهور بالمظهر المناسب لارباحهما حتى لا تلتفت اليهما الانظار. زد على ذلك ان حفظة الأمن الشرعيين رجال البوليس- يقسون على اصحاب هذه المهنة ويزعمون ان عملهم جريمة يعاقب عليها القانون، ويطلقون على هذه الجريمة المزعومة اسما بغيضا هو «ابتزاز الاموال بطريق التهديد باذاعة الفضائح» وهكذا لا يتهيأ النجاح فى هذا النوع من

الاعمال الا لذوى الذكاء المفرط، والاحتراس الشديد.

ومسيو بريسار- اكبر الشريكين - لا يكف عن احاديثه عن تمجيد الشرف والاستقامة، حتي ليعتقد محدثه بأنه من دعاة الفضيلة والاصلاح. وهو قصير القامة، متكور الجسم. ذو رأس صلعاء. وعينين كعينى الخنزير فى وجه منتفخ مليئ.

أما زميله مريفيل فأطول منه قامة واضحم بنية، وقد وهبته الطبيعة صوتا عميقا غليظا وان تهبه لسانا ذلقا، ومهمته فى كل حديث لا تعدو التأمين على اقوال شركة بهمهمة كخوار الثور.

والحصول على «البضاعة» التى يتعاملان فيها ليس بالامر العسير. فقلما تجد اسرة ليس لها سر تتكتمه وتبذل كل مرتخص وغال في اخفائه عن الناس، ولكن ذوى الالمعية والذكاء من امثال السيدين النبيلين بريسار ومريفيل، تكفيهم اللمحة الخاطفة والهمسة الخفية لينفذا الى اشد الاسرار غموضا وخفاء.

وقد استعت اعمال الشريكين فى العهد الاخير فلم يجدا بدا من استخدام رجل اخر بمدينة ليون، وهما الان فى اشد الحاجة الى رجل حاذق جرئ يمثلهما فى بوردو، اذ ان امامهما بتلك المدينة «مهمة» تنطوى على خطر عظيم فلا يجرؤ احدهما على توليها بشخصه، وقد انفقا الاسابيع الاخيرة ينشدان ضالتهما بين طلقاء السجون من ذوى الجسارة والخطر، فلم يوفقا الى الرجل الذي يجمع بين الكفاءة والاخلاص.

وانهما لفى هذه الحيرة ومسيو بريسار يفض بريد الصباح، وشريكه يتصفح طائفة من الصحف الاجتماعية الواردة من مختلف العواصم الأوروبية لعله يشم من خلال السطور فضيحة تعود عليهما بالربح والغنم.

وما كاد بريسار ينتهى من قراءة احدى الرسائل حتى صاح متهللا:

- حلت المشكلة ياعزيزى مريفيل!

وتلا على شريكه الرسالة التالية :

حانة ليبريتاد - بونس ايرس
١١ فبراير
استاذى العزيز :
سيدهشك بلا ريب أن تعلم انى بهذا البلد الموحش النازح، ولكنى لا ادرى فى الحق كيف انقت بى المقادير اليه، ولا كيف استطيع العيش به بعد ان انقضت على هنا بضعة اسابيع.
ان امريكا الجنوبية مجال فسيح لموظفى الحكومة ومربى الماشية، ولصوص الماشية يصيبون فيها كذلك الثروة والنجاح. ولكنى لسوء الحظ لست اهلا لاحدي هذه الصناعات الثلاث.
ولا تجدى هنا الوسائل الرفيعة للحصول على مبالغ يعتد بها من المال/ فان اهل هذه البلاد يجاهرون باسرارهم الخاصة وفضائحهم العائلية فى المقاهى والحنات. فلا سبيل الى الافادة منها.
وليس كل لمايا استاذى العزيز سوى مقدمه لاخبارك بانى احن الى فرنسا الجميلة وأتوق اليها. فاذا كانت بك حاجة الى تساوى ثمن تذكرة السفر فاكتب الى، الا اذا سبقت رسالتك طعنة تصيبنى من خنجر ذلك الرجل الخلاسى الذى انافسه فى حب احدى نساء الحانة.

فردريك لاروك

وقال مريفيل فى صوته العميق الغليظ :
- حم! من يكون فردريك لاروك هذا؟
- شاب كان يعمل معى قبل تأليف شركتنا. ولقد ابدى استعدادا نادرا لمهنتنا، ولكنه ابى ان يظل معى برغم ما بذلت له من النصف، فركب رأسه ورحل وانقطعت احباره، ويدهشنى ان اجده خارج السجون، ولكن هذا يؤيد رأيى فى ذكائه ونجابته، ولا ريب ان ما عاناه من الشدائد فى العالم الجديد قد راض نفسه المتمردة وجعل منه الة طيعة نستطيع تحريكها كيف شئنا.

وهكذا كتب بريسار الرد واودع به تحويلا بالف فرنك طالبا الى لاروك ان يوافيه الى فندق التيجان الثلاثة في بوردو باسرع ما يستطيع.

بعد ذلك بثلاثة اسابيع كان المسيو فردريك لاروش يصعد سلم الباخرة امازون التى توشك الابحار الى فرنسا، وفى صحبته أمرأة من حانة ليبرتاد، ويده لا تفارق قبضه مسدسه، بينما كان على رصيف الميناء رجل خلاسى يكاد يتميز من الغيظ لانه لا يحمل من انواع السلاح سوى الخنجر.

الفصل التاسع - فندق التيجان الثلاثة

كانت ماري الخادم الحسناء بفندق التيجان الثلاثة نهبا لاشد القلق والاضطراب، وقد لزمت الباب الخارجى لا تتحولعنه. وما يعنى قلقها انه كان محظوراً عليها الوقوف هناك، فلعل صاحب الفندق يؤثر ان تكون دائما عند الباب اذ لبس فى واجهة الفندق الحقير ما يستهوى الناظرين سوى وجهها الجميل، وقلما كان مندوبو الشركات التجارية القادمون من محطة بوردو يتجاوزون باب الفندق اذا رأوا الخادمة الحسناء.

ولقد كانت مارى فى ذلك اليوم على موعد مع احد أولئك السادة. وهى قلقة مضطربة لان زوجها فكتور خادم الفندق لا يفتأ يتردد على البهو من خلفها. وليس فكتور بالزوج الذى تخشى صولته، فانه من الغفلة والغباء بحيث ينبغى ان يكون الازواج، وفى وسع مارى ان تغازل الرجال بين سمعه وبصره ما شاءت دون ان يقوم فى ظل من الشبهة والريب، ولكنها لا تأتى شيئا من ذلك بحكم ما درجت عليه من احترام الاوضاع والتقاليد. أما الان وهى توشك ان تنزل به شر ما تستطيع من المصائب. فانها لا تملك نفسها من الاضطراب شأن كل من يهم باقتراف الجريمة الاولى.

واسترعى انتباهها رجل وأمرأة يهبطان من مركبة امام الفندق. وكان الرجل مديد القامة نحيف البنية. قوى العضلات. بناهز الثلاثين من العمر وله شعر

اصفر باهت، وذقن عريضة بارزة. وعينان سمراوان تكادان تلتهمان الخادمة التهاما. على ان اهم ما لفت نظر مارى اليه هو غرابة هندامه، فقد كان يرتدى معطفا من الصوف الخشن. وقبعة رمادية رخوة. وبنطلونا واسعا كأنه حقيبتان ضمتا معا. ومن تحت معطفه وسترته حزام عريض أحمر.

أما صاحبته فكانت ترتدى ثيابا حالكة اللون، وهى صغيرة الجسم. ربما كانت جميلة فيما غير من ايامها. وقد تجاوزت الاربعين وبدا فعل السنين بها واضحا وان كان لا يزال فى قدها اثر من رشاقته الذاهبة. ولها شعر اسود جعد مقصوص، وعينان دعجاوان يلتمع فيهما بريق غير طبيعى، وادركت مارى على قلة خبرتها بالحياة انها من اولئك النسوة اللوائى يأكلن خبز الدعارة ويتقاضين ثمن العار. ولكن الذى حارت فيه هو تلك الصفرة الفاقعة التى تكسو وجهها، والانتفاخات الدقيقة التى تحت عينيها. وهى السمات التى تدفع بها الطبيعة مدمنى المخدرات.

وراحت المرأة تنظر الى صاحبها ساهمة مستغرقة وهو يساعد الحوذى فى انزال امتعته. ثم التفت الى مارى بابتسامة عريضة وسألها:

- هل لديك ياعزيزتى غرفة خالية وخادم قوى يحمل هذه الامتعة اليها لله

أجابت الخادم بابتسامة عذبة : لا تزال لدينا غرفة ياسيدى.

- ثم التفت نحو الداخل منادية فأقبل زوجها فكتور مسرعا، وتحرك الركب الى داخل الفندق دون ان تبرح مارى مكانها، والرجل يأسف لذلك اشد الاسف.

وصعد فكتور بالقادمين الى غرفة بالطابق الثالث بها سرير كبير ومنضدتان صغيرتان وبضعة مقاعد. وبداخلها خزانة صغيرة للثياب. وقال الخادم فى لهجته البطيئة المتعثرة هذه هى الغرفة الوحيدة الخالية ياسيدى.

اخذ الرجل يعاون الخادم فـي نقل الامتعة الى الخزانة وخلعت المرأة قبعتها ومعطفها وطوحت بهما الى احد المقاعد فى غير اكتراث. ثم استلقت على

مقعد اخر وهى تقول فى سآمة وكلال:
- شد ما اشعر بالتعب ؟
وعاد الرجل وهو يسأل فكتور: الم يسأل احد من المسيو لاروك؟
فقدم اليه فكتور بطاقة وقال: جاء هذا السيد منذ ساعة وقال انه سيعود بعد قليل.
ونظر لاروك فى البطاقة مغمغما: بريسار..
ثم طلب الى الخادم زجاجة أبسنت وشيئا من السجاير وبعد انصرافه عاد ينظر في البطاقة وهو يغمغم.
- لست ادرى ما يرمى اليه الان هذا الشيطان العجوز! وانثنى الى المرأة قائلا : لاريب انك مسرورة بالعودة الى فرنسا، فقد كنت فى اشد اللهفة اليها؟
قالت في صوت كالهمس: لقد تغربت عنها.. عشرين سنة ! وانى لافكر فيما كنت عليه اذ ذاك. وما صرت اليه اليوم..
- اذا كان التفكير في ذلك يؤلمك ويمضك فدعيه عنك.
- صدقت. لعله من الخير الا افكر فى ذلك
- أن الماضى لا سبيل الى تلافيه بافتاتي. وفى النساء من هن أشقى منك واسوأ حظا..
فغمغمت المرأة بابتسامة حزينة باهتة لا ادرى!
- انك المرأة الوحيدة التى أحببتها فى الاشهر الستة الاخيرة وهو امر جرى بالتقدير دون شك؟
فقالت المرأة تناجى نفسها:
- منذ عشرين سنة كنت فتية حسناء
قال مازحا: ولا تزالين حسناء فى ضوء مصابيح الغاز فمضت في نجواها غير عابئة به.
- كان لى زوج .. وولد .. أما الان فانى وحيدة منفردة لم يترك لى الدهر

شيئا! وهتف لاروك ضاحكا : وأنا ؟ الا اساوى شيئا عندك ؟

قالت مضجرة : صه.. فلا قيل لى اليوم بهذرك

اجابها وهو ينحنى أمامها ساخراً:

- ما بال سيدتى اليوم ثائرة الاعصاب؟

- انني اليوم ضيقة الصدر لا اتردد فى بيع حياتى بستتيم واحد.

- صفقة خاسرة! خففي عنك ولا تستسلمى الى الهم والشجن. انى اعلم انك كنت من ذوات الترف والثراء. ولكن الايام تنتقل بالناس بين الغنى والفقر تنقل الكواكب فى البروج. ولاضرب لك مثلا بنفسى. فقد كنت كاتب لحام عند بريسار العجوز وها أنت ترين ماصرت اليه.

وجاء فكتور اذ ذاك بالبسنت والسجاير فراح لاروك يرمق الزجاجة في شغف ويقول:

- هيا امزجى الشراب يافتاتى فلست دونى حاجة اليه .

رفعت المرأة غطاء الزجاجة واخذت تعد الشراب، وانثنى صاحبها الى فكتور قائلا:

- ما هى اخبار بوردو ياصاح ؟ اممتعة هى ؟

ففكر فكتور طويلا ثم قال: انها ممتعة حينا وغير ممتعة حينا اخر.

فانفجر لاروك ضاحكا والخادم لا يرى سبب لضحكه. ثم سأله:

- وما حالة الطعام بالفندق ؟

وعاد فكتور الى التروى والتفكير ثم قال:

- يقول بعض النازلين أنه جيد ويقول بعضهم انه ردئ.

وانفجر لاروك شاحكا من جديد وهو يقول:-

- أفدت .

بهت فكتور وحار فى هذا القادم الذى يضحك من غير موجب الضحك وقال:

- العشاء فى الساعة الثامنة، واذا أردتما شيئاً فاقرعا الجرس مرة واحدة لى ومرتين للخادمة.

انصرف الخادم، وأخذ الرجل وصاحبته يدخنان ويحتسيان ذلك السائل الفتاك صامتين. ثم سألته المرأة فى صوت من لا يعنيه شئ فى الحياة:

- المكث فى بوردو طويلا؟

- هذا رهن بما تسفر عنه مقابلة بريسار.

ومن هو بريسار هذا؟

- انه محام.. وهو شيطان عجوز يحفظ القوانين كلها عن ظهر قلب. ولقد كتبت اليه دون ان اتوقع ردا. اذ كنت موقنا انه لابد ان يكون قد اعتزل الاعمال او انصرف الى صنع الاحذية بين جدران سجن من السجون، ولكنى اخطأت التقدير كما ترين. فقد جاء الرد ومعه الف فرنك نفقات سفرى، ولا ريب ان هذا الثعلب الماكر فى حاجة الى الامر من الامور، فانه لا يبذل الف فرنك بلاغاية ولاغرض.

قالت وهى تتكلف الاهتمام:

- كن على حذر!

- لا تخافى فسافتح عينى جيدا و ...

وهنا نقر الباب فقال:

- هذا هو فيما اظن. ادخل!

وفتح الباب ودخل بريسار بخطواته السريعة التى تشبه الوثب، ومن خلفه شريكه فى «المهمات السرية».

الفصل العاشر - اتفاق

هتف بريسار وهو يمد يده الى الأفاق المغامرة الذى نهض لاستقباله !

- عزيزى لاروك ؟

وأجاب لاروك وهو يهز يده : كيف حالك ياسيدى ، أراك أكتسيت كثيرا من اللحم .

فقال بريسار وهو يغمز بعينه فى خبث :

- ولكنى أكتسى به مع ثيابى كل صباح لان الرجال النحفاء لا يوحون الى النفوس بالثقة والاطمئنان .

ثم أنتبه الى وجود المراة بالغرفة فحياها باحترام وأقتدى به شريكه ، وقال لارك فى لهجة لا تخلو من السخرية وهو يشير اليها:

- شريكة حياتى فى الستة الشهور الأخيرة .

فانحني لها الشريكان مرة أخرى وأجابتهما المراة بايماءة من رأسها ثم انصرفت الى الابسنت والسجاير اذ كانا أحق باهتمامها .

- أسمح لى أولا بشكرك على الالف فرنك التى أرسلتها الى فابتسم برسار قائلا :

- عندما تسلمت رسالتك بدا لى أنك لست فى سعة من العيش، ورأيت أن أرسل اليك شيئا تحت الحساب.

- هب أننى أخذت النقود وأثرت البقاء فى أمريكا الجنوبية ؟

- لم يخامرنى أى خوف من هذه الناحية ، فأنى أعرفك جيدا وأعلم أنك أشد ذكاء من أن ترتكب هذا الخطأ ، وما قيمة ألف فرنك بجانب المركز الذى سأعرضه عليك ؟

- أهو كما تصف ؟

- سئل المسيو مريفيل .

فبادر مريفيل الى التأمين على قول شريكه فى صوته العميق الغليظ

- مركز من الدرجة الأولى .. مركز عظيم جدا .

وإعتدل لروك فى مجلسه قائلا :

- هذا أمر خليق بالأهتمام .

ونهضت المراة قائلة :

- سأذهب الى الخزانة لترتيب الأمتعة .

ثم انصرفت بالزجاجة والسجاير فقال بريسار :

- لنتحدث الآن في العمل ، وينبغي أن تعلم أنني لا أشتغل الآن بالمحاماة.

قال لاروك : قرأت ببطاقتك أنك مسجل عام .

- هذه هي مهنتي في نظر الناس ولكنني في الحقيقة رجل أعمال .

- أي نوع من الأعمال ؟

- جميع الأعمال .. أعمال من كل صنف .. اني لا أرفض عملا .

فقال مريفيل مستدركا :

يشرط أن يكون من ورائه المال .

وأستطرد الشريك الأكبر قائلا :

- ولكننا نشتغل الآن بصفة خاصة بالأخطاء والرذائل التي يقع فيها أخواننا من بني الأنسان .

قال لاروك :

صناعة حسنة فيما أرى ..

وهتف مريفيل بصوته الغليظ :

- وجليلة الفائدة للفضيلة والأخلاق أيضا .

قال لاروك وقد أعتزم ألا يكتفي بالأيماء والتلميح : ولكني لا أفهم ما تعنيانه تماما .

أجاب بريسار :

- ستفهمه عاجلا ، أن لأكبر العائلات آسرارا يعدل كل منها ثروة طائلة

قال لاروك : فهمت .. أبتزاز .

فرفع الشريكان أيديهما في ذعر وهتفا بصوت واحد :

- صه .. ما أقبحها من كلمة نسنا الا خداما متواضعين في قضية

العدالة!

- وهل ربحها عظيم ؟

قال بريسار : عظيم ؟ سوف ترى بنفسك ، أن مكتبنا الرئيسى فى باريس ، ولكنى جئت لافتتاح فرع جديد هنا فى بوردو ، وسيتولى شريكى العزيز الأشراف عليه مؤقتا حتى تحذق أساليبنا فنكل اليك الأدارة ونضاعف مرتبك ونرفع عمولتك .

- ففكر لاروك هنيهة ثم مد يده قائلا . أتفقنا !

الفصل الحادى عشر - حول البائنه

بعد أن أدى الشريكان الى وكيلهما الجديد حقه من التحيه والترحاب ، أقترح الشريك الأكبر الأنتقال الى تفاصيل أول مهمة ستوكل اليه ، وتهيا لاروك للأصغاء ولكن الشريكين ابتسما فى وجهه أبتسامة بريئة عذبة قائلين .

- ليس هنا أيها الصديق الطائش .. فأن للجدران أذانا .

فنهس لاروك وتناول قبعته ومعطفه قائلا : والى أين تريدان الذهاب ؟

أجاب بريسار : سنختار مكانا آمناً قريبا من هنا .

وقصد بريسار بصاحبه الى حانة كبيرة حيث أختار مائدة منعزلة ونفح الخادم بحلوان كبير لكيلا يدع أحدا يقترب منهم .

ثم طفق يتحدث عن حادث اختلاس كبير أقترفه أحد الموظفين ولا يزال طى الكتمان ، وكيف أن لذلك الموظف نصارا من ذوى الجاه والنفوذ يعتزمون سداد المبلغ .

وروى كيف شاءت العناية الألهية أن تقع فى يده بعض الوثائق المثبتة للجريمة . وأن أولئك الأنصار لن يضيرهم أن يضيفوا الى المبلغ سبعين أو خمسة وسبعين الف فرنك يدفعونها لبريسار ثمنا لسكوته .

وظل الشركاء يقلبون الأمر على مختلف وجوهه ويرسمون الخطط الى ما

بعد الظهر بقليل ، وقال بريسار :

- لست فى حاجة الى تأكيد ضرورة الأحتياط الشديد فى معاملة هذا الرجل ، فإن نفوذه عظيم بحكم مركزه الرسمى ويجب أن نحترس من الوقوع فى شرك ينصبه لنا ، أنه ذكى جسور لا وازع له من خلق أو ضمير ، وبهذه المناسبة .. أنك لم تتزوج ياعزيزى لاروك ؟

فأجاب لاروك ضاحكا : لعمرى لا ..

- لقد ساورنى القلق عندما رأيت عندك تلك السيدة ..

- لقد عرفتها فى أحدى حانات بونس أيرس ، وكانت تحصل على ما لا يكاد يسد رمقها من عرض نفسها على رواد الحانة ، وهى أمراة لا خطر منها ، غير أنها مدمنة على المورفين والأفيون لكى تعينها على النسيان فيما تقول ، وزوجها فيما تزعم لا يزال على قيد الحياة ، وهو علم من أعلام القضاء ..

فهتف بريسار فى أهتمام وهو يبادل شريكه النظرات حقا ؟

ومضى لاروك فى حديثه دون أكتراث :

- أجل .. من وكلاء النائب العام فى باريس فيما أعتقد ، وقد خانته فطردها .. فرفع مريفيل يديه مستعيد ، وهتف فى مثل خوار الثور :

- يا لله ! حتى أخلاق قضائنا ومحامينا قد أنحطت الى هذا الدرك ؟!

ولكن بريسار لم يلق اليه بالا ، بل سأل فى لهفة ؟

- وهل روت لك قصتها بنفسها ؟

فأجاب لاروك : منذ عشرين عاما ، وقد كانت تتلهف على العودة الى فرنسا عندما لقيتها وهى لاتملك فلسا واحدا .

ستصحبها لتؤنسنى فى السفر ..

- وهى روت لك قصتها بنفسها ؟

- نعم ، أخبرتنى بها فى يوم أكثرت فيه من المخدر .

وهى بطبيعتها تؤثر الصمت ، غير أنها اذا كثرت من المخدر أسرفت فى

الكلام .. مسكينة ! لقد تلاشت قواها ولن تعيش طويلا..

قال بريسار فى أهتمام : اذا كان زوجها حقا وكيلا للنائب العام منذ عشرين سنة ، فقد يكون الآن نائبا عاما ، وقد نجد فى ذلك عملية رابحة ..

فبدت على وجه لاروك علامات الأهتمام وقال : كيف ؟

- أنه لن يضن بشىء فى سبيل منع أذاعة فضيحة زوجته هل تعرف أسمه!

- كلا .. لم تخبرن به قط .

- وكم تظن عمرها الآن ؟

- فوق الأربعين ..

- لابد أنه بلغ ذلك المنصب صغيرا أذا كان يماثلها فى العمر ، أواثق أنت من أنها لم تذكر لك أسمه ؟

- ما كنت لانساه لو ذكرته ..

- ليس هذا بأمر ذى بال ، وليس من العسير أن نهتدى الى معرفة وكيل النائب العام الذى هجرته زوجته منذ عشرين سنة .. الم تخبرك هل كان أهلها أغنياء عندما تزوجت ؟

- لا أظنها تحدثت عن ذلك ، ولكن ما شأن أهلها ؟

- الا ترى أنها اذا كانت الأن فوق الأربعين بقليل فلا بد أن تكون قد تزوجت صغيرة وهجرت زوجها بعد زمن قصير ويتبع ذلك أن زوجها كان عندما اقترن بها محاميا صغيرا فقيرا ، فلم يكن ليقدم على الزواج الا اذا حملت اليه بائنه "دوطة" ..

فقال لاروك وهو عاجز عن فهم مايرمى اليه ! وماذا فى ذلك ؟

- أن لها الحق فى أسترداد البائنة أن لم يكن قد ردهه اليها عندما طردها ..

- ولكن لها طفلا ..

- لا يؤول المال الى الأبن الا بعد وفاة أمة ، وعليك أن تعود الآن اليها وتستخلص منها كل ماتستطيع من المعلومات ثم تعود الينا لنسافر فى الحال الى باريس ، وعسى أن تستطيع الحصول على توكيل منها ..

- ساعود بعد ساعة ..

وأسرع لاروك الى الفندق ..

الفصل الثانى عشر - على حافة الهاوية

ما كاد الرجال الثلاثة يغادرون الفندق حتى خرجت المرأة من الخزانة وهى تغمغم فى كلال : لقد ذهبوا .. !

وجلست الى المنضدة وأخرجت من حقيبتها البالية أنبوبة صغيرة ثم مجموعة قذرة من ورق اللعب ، وكان من العسير أن يعرف الناظر فى هذه المراة التى أنهكتها المخدرات وعبث بلبها الخمر . تلك العروس الفاتنه زفت الى زوجها منذ عشرين عاما .

وبعد أن تناولت قطرات من الأنبوبة الصغيرة أخذت تسعل بشدة حتى كاد صدرها يتصدع ، ثم راحت لتقلب الورق ،

وما لبثت أن كفت عن ذلك فجأة وراحت تبكى بكاء يذيب أقسى القلوب.

ولقد تعلمت جاكلين وهو تخوض غمرات اليأس والعذاب خلال هذه السنين كيف تمقت زوجها أشد المقت ، ولكن ذكر ولدها وحبها له كانا يزدادان على الأيام تضرما واشتعالا ، ولولا هذه الشعلة المقدسة التى ظلت فى حنايا فؤادها المظلم لاماتت الرذيلة فى نفسها كل عاطفة وإحساس وأنقطعت كل صلة بين ماضيها وحاضرها .

وظل ذهنها الذى أخمدته المخدرات يحوم خلال الشهور الأخيرة حول قبس ضئيل من الأمل .. والأمل فى أن تظفر بلحظة عابرة من السعادة قبل أن

تقضى نحبها ، فقد تعلمت قراءة المستقبل فى ورق اللعب من امراءة خلاسية ، وكان الورق ينبئها دائما أنها ستبتاع تلك اللحظة السعيدة بحياة أنسان ثم تموت هى على الأثر ، وبهذا الوعد تشبثت جاكلين تشبث الغريق بالخشبة الطافية .

وكفت عن البكاء وراحت تصف الورق من جديد وأذا بها تسمع نقرا على الباب فقالت دون أن تنظر نحوه .

- أدخل ..

دخلت الخادمة مارى تحمل النموذج الذى يحتم البوليس ملأه عن نزلاء الفنادق فطلبت اليها جاكلين أن تكتبه قائله :

- مسيو ومدام لاروك من بونس ايريس .

ووقفت الخادمة تنظر اليها فى فضول ثم سألتها :

- هل تقرأين المستقبل فى ورق اللعب ياسيدتى ؟

- أجل ؟

- وهل تسمحين بقراءة طالعى ؟

فألقت عليها جاكلين نظرة شاردة ثم قالت : أجلسى .. وبعد أن صفت الأوراق ونظرت فيها مليا قالت :

- أنت متزوجة . ولك طفل ..

- أجل .. طفلى المحبوب .. وعمره الآن سبعة شهور .

- أنك تحبين رجلا غير زوجك وتعتزمين الفرار معه .

فصاحت مارى متحمسة :

- أن زوجى هو فكتور الذى حمل أمتعتكما ، أما الآخر فشاب أنيق ظريف يشغتل مندوبا لاحد مصانع الصابون .

وسالقاه الليلة فى جران كافيه . وعدا نرحل عن هذه المدينة .

- وطفلك ؟

فهزت الفتاة كتفيها فى أستخفاف قائلة :

- أنه فى كفالة أحدى الممرضات ولن يهمله أبوه .

- أصغى الى يافتاتى . انك تغررن بنفسك وتسعين الى التلف والهلاك ، فأستمعى لنصحى وأمكثى مع زوجك .

فهتفت الفتاة فى لهجة مسرحية :

كلا ! لا أحب سو أنانول وساسافر معه الليله .

- لسوف يهجرك حبيبك يوما ما ويتخذ الخليلة بعد الخليلة ، ولسوف تعرفين معنى تلك الحياة الشقية .

فسألتها الفتاة مرتاعة : هل خبرتها ؟

- نعم ، كنت فى مثل سنك عندما هجرت زوجى وولدى ، رباه ! ما أشد بغضى لزوجى !

وثارت ثائرة المراة المنكودة فاشتعل فى عينيها غضب جنونى وضمت قبضتيها ، ولكن سرعان ما خبا ذلك اللهيب وستألفت جاكلين حديثها قائلة :

- ولكنى أعانى موتا بطيئا وعذابا رهيبا لان ولدى ليس معى ، لا ريب أنه الآن فتى جميل يحبه الناس ويعجبون به ، ولكنى لن أعرفه أو لقيته فى الطريق ولن يعرفنى ، أنه يعتقد أننى مت منذ عشرين سنة ، أواه ياريمون .. ولدى ! وانفجرت المسكينة باكية من جديد .

ثم هتفت والدموع تهطل من عينيها :

- خير لك أن تتعظى بى ، أنت الآن فتاه حسناء ، ولكن الشباب والجمال يذويان كما تذوى الزهور ، والرجال يسامون سريعا .

وبكت الفتاة تأثرا ثم قالت :

- آن أنانول لن يتخلى عنى !

فكفت جاكلين عن البكاء فجأة وحدجتها بنظرة شزراء وقالت :

- أنك لاشد حمقا مما ظننت !

وانخرطت الفتاة فى البكاء ، فنفذ شعاع من الرحمة الى ذلك القلب الذى

أخمدته المخدرات .. وقالت جاكلين فى صوت أجش:

- أجلسى .. ساقص عليك قصة لعلها تنقذك من الألم المرير الذى تجرعته.

الفصل الثالث عشر - من ظلمات الماضى

أخذت جاكلين تسعل سعالا مؤلما بعد أن تناولت قطرات من المخدر ، ثم بدأت الحديث قائلة :

- لعلك تحسبين نفسك حسناء فاتنة وترين من الطبيعى أن يعرض عنى الرجال ، ولكننا لو وقفنا جنبا الى جنب عندما كنت فى مثل سنك لما كان فى العالم أجمع من يحفل بك .

منذ خمس أو ست وعشرين سنة كنت أعيش فى مكان لا يبعد عن هنا كثيرا ، وكنت وحيدة والدى اللذين توفيا عنى وأنا طفلة صغيرة ، وما بلغت السادسة عشرة من العمر حتى ألقيت هناك شابين يظهران لى أكثر من المودة والأحترام ، وكان أحدهما يسمى نويل وأعرفه منذ حداثتى ، أما الآخر فأسمه.. لويس ؟

كان لويس أكبر من نويل ، الشباب الجاد الرزين ، وقد أحببنا بعضنا بضعا واقترنت به قبل أن أستكمل التاسعة من عمرى ، ولعل نويل كان يحبنى أيضا فقد أنتحر بعد زواجى بصديقه .

وأنقضى شهر العسل فاقمنا بباريس مقر عمله ، وكان طموحا واسع الأمال فانصرف الى عمله كل الأنصراف ولم أعد أظفر من وقته الا بالقليل . ولم أضق بذلك فى أول الأمر اذ كنت أحبه حبا يتسع لكل تفصير مهما عظم ، كما كنت على وشك الوضع فوجهت تفكيرى كله الى الوليد المنتظر ، ثم ولد الطفل فأستغرق كل تفكيرى وأهتمامى ، ولكن كان محالا أن يظل كذلك الى ما شاء الله .

كنت أريد زوجي وأحب اللهو والمتاع ، ولكنه كـان منصرفا بعمله عن كل شيء ، وكم الححت عليه أن يأخذني الى المسارح والمراقص والخلوات ، ولكنه لم يكن يجد من وقته متسعا لذلك ، فانقلب الى فراشي باكية ضيقة الصدر ..

وجاء مـعه ذات مـساء شـاب للعشـاء معنا وهمـا فى أشد حـالات الجذل والسرور ، لان زوجي انقذه من تهـمه لم يشا أن يحدثني عنهـا.. وكان الشاب جميـلا ظريفا فاستـمتعنا بسهـرة لم أظفر بمثلها منذ زواجي ، وأكـثر الشاب – وأسمه البير – بعد ذلك من زيارتنا ، ولا ريب أن زوجي المغفل قد ظنه يزورها أظهارا لشكره وعرفانه بالجميل !

وفي عصر أحد الأيام أردت الخروج للنزهة فطـلب الى البير أن يصحبني ، وصار البير بعـد ذلك رفيقا لى كلما خرجت ، وذلك الأحـمق لايفهم أن شابا كالبير لايقف كل وقته على أمراة متزوجة لمحض تقديره لجميل زوجها !

وسـألت زوجي ذات يوم أن يخـرج معى للنزهـة فى فونتنبـلو فأبى، ونفـد صبرى وضقت بهذا الأهمال ضيقا شديدا ..

ولا ريب أن البيـر رأى فى وجهى أثرا مما يعتـمل نفسى ، فـبدأ يكشف لى عن مكنون حبه وهواه ، ولما شـعرت بقبلته الأولى على يدى أجـفلت مرتاعة ، وهوعت الى زوجي أطلب عنده الحـماية ، وحـاولت أن أتحدث اليـه فصـرفنى قائلا أذهبى الى البير !

ولقد ذهبت الى البير .

وانفجرت جاكلين باكية ، ثم رفعت رأسها وأستطردت قائلة :

– عدت تلك الليلة وأنا غير تلك المراة العفيفة النقية ، وتسللت الى فراشي ورحت أبكي وأنا أخشى أن يسألنى عـما بى عندما يأت ليحيينـى تحية المساء .. ولكنه لم يأت .. كان مشغولا عنى بقضية من قضاياه وهنا ذهب كل ماكنت أشعـر به من الندم وعـذاب الضميـر، وسلمت نفسـى الى البيـر دون أن أحفل بالمستقبل .

ثم فاجانا ذات ليلة ففررت مع عشيقى ، وأبتعنا منزلا بالريف أقمنا به مدة طويلة ، ولكن هل كنت سعيدة ؟ كلا .. كنت أريد ولدى ؟

وما أنقضت سنة واحدة حتى كاشفت البير بأنى لا أستطيع العيش بعيدة عن ولدى ، وعزمى على التماس الصفح من زوجى ، ولكن أقعدنى عن ذلك خوفى من الأخفاق ، ثم مات عشيقى ..

وأتفق أن سمعت أثنين من المحامين يتحدثان فى أحدى المقاهى عن زوجى ، وفهمت من حديثهما أن ولدى مريض فى خطر ..

كاد يغمى على من وقع النبا ، وأسرعت الى باريس فعلمت أن زوجى أنتقل الى ضاحية باسى عقب فرارى ، فلما أهتديت الى بيته بتلك الضاحية كان قد مضى شطر من المساء ، ورثت لى الخادم الأمينة فانباته برغبتى فى مقابلته دون أن تذكر له أسمى ، ورحت أبلل قدميه بدموعى ضارعة متوسلة الى أن كاد فؤاده الحجرى يرق ويلين ، ولكنى ذكرت أن عشيقى قد مات فتلظى غضبا اذ ظن أن هذا هو السبب الحقيقى فى عودتى ، ودفع بى من الباب فى قسوة وعنف ، وقضى على بالحرمان من ولدى الى الأبد .

قد يصفح عنك الناس اذا قتلت رجلا وكان لك فى قتله عذر أو شبه عذر ، أما اذا زلت بك القدم وخنت زوجك فأنهم ينبذونك نبذ النواة مهما يكن لديك من الدوافع والأسباب !

الفصل الرابع عشر- جحيم الخاطئات

وأستطردت جاكين قائلة : لا أذكر مما حدث بعد ذلك الا أننى ألقيت نفسى على ضفة السين وماء المطر ينفذ من ثيابى ، وعلى الضفة الأخرى ضوء يترامى شعاعه على صفحة الماء فينير ماتحت قدمى ، ونظرت فأذا بى أبصر ولدى فى الماء !

أنك لتقولين الآن فى نفسك اننى مجنونة ، ولكنك لاتعرفين عن الأنباء

شيئا يافتاتى ، سوف ترين ولدك فى الماء أذا هربت مع عشيقك بائع الصابون .

وهممت بالوثوب الى الماء واذا بيد تقبض على من خلفى وصوت يقول :

- أمريضة أنت ياسيدتى ؟

واقتادنى ذلك المنقذ الكريم الى حالة قريبة حيث أرغمنى على أحتساء قدحين من النبيذ ، ودبت فى جسمى الحرارة والنشاط فاستطعت النظر الى وجهه ، وكان شابا وسيما فى وجهه مخايل النبل والشرف ، وفى لهجته مايدل على أنه انجليزى .

ولا أعرف مقدار ما أفضيت اليه به من قصتى ، ولكنى علمت فيما بعد أنه أغمى على فلما عدت الى الرشد ألقيت نفسى على فراش وثير بغرفة حسنة الأثاث ، والى جانبى أحدى الممرضات .

وأنقطعت الممرضة بعد أيام قلائل لانقضاء الحاجة اليها فكان ذلك الشاب الكريم ينفق الساعات الثمينة من وقته فى أيناسى بالحديث والقراءة دون أن تبدو منه بادرة تكشف عن الغرض ، وعرفت أنه من أسرة أنجليزية موسرة جاء الى باريس ليدرس فن التصوير .

ولما زال كل أثر للمرض أردت الرحيل عن بيته ولكنه أصر على بقائى به حتى أوفق الى عمل يقوم بمطالبى ، كما أقرضنى نقودا لابتياع ما أحتاج اليه من الثياب .

وأنا لجالسان ذات مساء وهو يقص على قصة مضحكة اذ مثل لخاطرى كل ماأسعدى الى من المنن والأفضال دون أن يرجو جزاء ، فاغرورقت عيناي بالدموع ، وجثوت أمام مقعدة ، ورحت الثم يديه .

وقف جون عن حديثه وهو يهتز تأثرا ،ثم أنهضنى فانطلقت أقبل شفتيه وعينيه وشعره ، ومنحته فى تلك الليلة كل ماكان في وسعي منحه

لم يكن يحبنى حبا حقيقيا ، ولكنه أخذنى معه عند أنتهاء دراسته ، وأستأجر لى مسكنا بلندن ، وأختصنى بمعظم وقته ، ثم أخذت زياراته تقل

وتتباعد ، وانبائنى أخيرا أنه على وشك الزواج بفتاة يعرفها منذ زمن بعيد ، وعرض على أن يستمر فى القيام بنفقاتى مع انقطاع الصلة بيننا ، ولكنى كنت اذ ذاك من الأباء بحيث رفضت عرضه وحزمت أمتعتى وأنتقلت فى نفس المساء الى غرفة رخيصة .

رحلت بعد ذلك الى أمريكا مع رجل من المشتغلين بشئون المسرح ، ولكنه لم يكن حريصا على كرامتى كذلك الشاب الأنجليزى . وستعلمين أيتها الفتاة اذ أستجبت لصوت الغواية والضلال أن الرجال بعد عشيقك الثانى أو الثالث لا يبالون كثيرا بعواطفك وكرامتك .

ولم يمض على فى نيويورك سوى شهر واحد حتى ملنى ذلك الأمريكى وهجرنى وأنا لا أملك شروى نقير .

لم أستطع الحصول على عمل أعيش منه ، وطردتنى صاحبة البيت بعد أن أخذت فى بيع ثيابى نظير أجر الغرفة ، فأمضيت سواد الليل وبياض النهار هائمه فى الشوارع والطرقات ، وفى الليلة الثانية أستوقفت أحد المارة أستجديه ما أسد به رمقى ، فمضى فى طريقه كان باذنيه وقرأ ، واذا بشرطى يبرز الى من مكمنه ويسوقنى الى مركز البوليس حيث قضيت الليل فى زنزانة رطبه ضيقه ، مثلت أمام المحكمة فى الصباح بتهمة تحريض المارة على الفساد ، وعبثا حاولت أقناع القاضى الجائر بأننى كنت أستجدى ذلك السيد ما أدفع به غائلة الجوع ، فخيرنى بين السجن شهرا أو غرامة خمسة دولارات ، وفيما الحراس يهمون بأخذى الى السجن كما فعلوا بأربع فتيات غيرى ، تقدم شاب أنيق لدفع الغرامة عنى ، وأخذ بيدى وأنا لا أكاد أشعر بشىء لفرط ما بى من الجوى والجوع والتعب ، وسار بى الى مطعم صغير فاقبلت على الطعام فى شراهة ونهم ، وصحبته الى غرفته حيث أمضينا النهار باكمله ..

وخرجنا فى المساء اذا قال أنه سيستأجر لى غرفة خاصة فاقتادنى الى بيت جميل حيث أستقبلتنا أمراة حسنة الهيئة باسمة الثغر .

وأستيقظت فى الصباح فوجدت ثيابى قد أختفت وفى مكانها غلالة رقيقة قصيرة لا أستطيع الخروج بها ، وأيقنت أننى وقعت بين براثن عصابة تجار الرقيق الأبيض ، وغذوت سجينة بذلك البيت لا أملك مبارحته ومكثت بتلك البؤرة أكثر من سنة أقاسى الذل والهوان ، واتمرغ فى أوحال الدنس والعار .

وتوقفت جاكلين عن حديثها لتشعل سيجارتها وتتناول جرعة أخرى من المخدر ، ولما طال صمتها سألتها مارى مرتاعة : أهذه كل قصتك ؟

فضحكت ضحكة بغيضة هائلة وقالت ساخرة : كل قصتى ؟ ليست هذه سوى البداية يافتاتى ، وستصيرين الى مثل ماكنت فيه اذا فررت مع عشيقك بائع الصابون !

تداولنى بعد ذلك تجار الرقيق وراحوا يتنقلون بى البلاد وعدت أخيرا الى نيويرك أجوب الشوراع للحصول على عيشى وعيش الرجل الذى يملكنى ، وكدت أهلك فى أحدى الليالى بردا وتعبا ، فأخبرتنى أحدى الفتيات أن قطعة من الأفيون كفيلة بتخفيف ما أعانى من العذاب ، فعكفت على تعاطى المخدرات منذ ذلك الحين.

ولا أذكر كم أمضيت فى عالم المنبوذات ، ولكن أحد تجار الرقيق الأبيض رحل بى مع جماعة من مثيلاتى الى أمريكا الجنوبية.

والحصول على العشاق من أيسر الأمور ، فلم يمض على زمن قصير حتى تحررت من أسار تاجر الرقيق الأبيض ، وجعلت اتجول فى أنحاء البلاد فى رفقة هذا أو ذاك من طلاب المتعة الأثمة الى أن التقيت بصاحبى هذا فى بونس أيرس.

وكنت قد تعلمت عرافة ورق اللعب من أحدى الخلاسيات وقرأت فيه أننى لا أعيش طويلا وأرى ولدى قبل موتى ، فاشتدت لهفتى الى العودة الى فرنسا ، وجاء بى صاحبى كما ترين .

تلا ذلك صمت طويل وسكون ممض لايقطعه غير نشيج مارى ، ونظرت

اليها جاكلين مليا ثم قالت :

- أنك على شفا الهوة التي ترديت فيها من قبلك ، فاذكرى أنك فى اللحظة التى ستهربين فيها مع عشيقك ، تقطعين كل صلة لك بعالم السعادة والهناء ، لقد كنت فى وقت من الأوقات بغيا أرستوقراطية ، أما أنت فلن تكونى الا بغيا عادية تسام ضروب الخف والهوان ، ولسوف تكون النساء أشد عليك من الرجال ، أن الرجال يلهون بك وهم يرسلونك الى الهاوية فى تؤدة ورفق ، أما النساء فيقذفن بك الى قرارتها فى قسوة وعنف وهن يشبعنك باقذع الشتائم واللعنات ! .

قالت مارى : ولكن أناتول يحبني ولن يتخلى عنى .

فراحت جاكلين تقلب فيها نظراتها الزائغة ، ثم ثارت ثائرتها فجاة فصاحب فيها .

- سحقا لك من مأفوله حمقاء ! أخرجى من هنا ..

الفصل الخامس عشر - الجريمة

عاد لاروك إلى الفندق وهو يكاد يرقص طربا بهذه الثروة التى توشك أن تهبط عليه من السماء. واذا كانت جاكلين قد حملت الى زوجها بائنة ضخمة كما يعتقد بريسار. فليس عليه الا الحصول على المال والتخلص من المرأة ليقضى بقية عمره في رغد وهناء..

وكانت جاكلين مكبة على أوراقها عندما دخل الغرفة. فطوح بقبعته وجلس قبالتها وهو يقول فى مرح:

- أتعرفين يافتاتى أن بريسار رجل فذ عجيب حقا ؟

فقالت دون أن ترفع رأسها: حقا ؟

- أتصدقين انه لم يكد يراك حتى قال انك كريمة المحتد؟

فأشرق وجهها غرورا. وقالت فى اهتمام : أقال ذلك حقا ؟ ورفعت أنبوبة

المخدر الى شفتيها هاتفة فى صحته.!

ثم صاحب فى جزع وقد نسيت ان لاروك لا يعرف شيئا عن اصلها: أنك لم تخبره من أنا..

- بل زعمت له انك ابنة قائد عظيم وزوجة مركيز حملت اليه ثلثمائة الف فرنك عند زواجك..

فقهقهت جاكلين قائلة ! وهل صدقك ؟

- كل التصديق .. ما رأيك فى هذه الكذبة البارعة؟ ها.. ها..! اكبر ظنى انك لم تحملى الى زوجك سنتيما واحدا!

فرفعت رأسها فى انفة وكبرياء وقالت:

- أجل، أنى لم احمل اليه ثلثمائة الف فرنك، ولكنى اعطيته مائة وخمسة وعشرين الفا.

فأخفى لاروك التماع عينيه، وتكلف الشك قائلا: انت تمزحين.؟

- بل هى الحقيقة التى لا ريب فيها..

- أين هذا المال اذن.. هل رده اليك ؟

- طبعا لا ..

- لا استطيع ان اصدق أنك كنت حمقاء الى هذه الدرجة.. أتعنين انك لم تطلبى هذا المال عندما طردك من بيته ؟

- انه مال ولدى الذى يحسبنى فى عداد الاموات، ولا ريب انه استولى عليه عندما بلغ الحادية والعشرين..

فهتف لاروك: يالك من بلهاء! اقسم انه لم ينل منه سنتيما..

كان يريد استدراجها الى التصريح باسم زوجها فأخطأه التوفيق، اذ استثار غضبها فصاحت به :

- مالك ولهذا ؟

فأدرك خطأه وقال فى لين: انه رأى بريسار..

- وما شأن بريسار في ذلك؟

- انه لم يقصد الا مصلحتك عندما زعمت انك حملت الى زوجك ثلثمائة الف فرنك لا اعرف هل ردها اليك أم لا، فقال ان زوجك لا يملك حرمانك منها..

- أني أوثر استجداء المارة او التمرغ فى الاوحال حتى اهلك جوعا، على ان أسأل ذلك الرجل شيئا..

فبادر لاروك الى موافقتها قائلا:

- نعم .. نعم .. ولكن في وسعك ان توكلى غيرك فى الحصول على مالك..

وكفت جاكلين عن البكاء واجابته فى سخرية :

- واعطيه توكيلا مذيلا باسمى ولقبى ؟ كلا.. شكرا لك. ان الموت أحب الى من ان يعلم ولدى اننى على قيد الحياة.

- ولكنه لن يعرف..

فلم تلق جاكلين اليه بالا، ومضت تقول:

- أريد ان يحزن على فقدى كلما مثلت في خاطره.. انه لم يعرفنى قط فينبغى أن يقدس ذكراى ويحبنى.. لا اريد ان يعرف اى صنف من النساء صارت أمه، ولا فى اية هاوية تردت.. لن يعرف ذلك مهما تجشمت من الالم والعذاب، فلنطو دون هذا الحديث كشحا ولا نعود اليه مرة اخرى.

فقال لاروك كاظما غيظه:

- فكرى فيما يستطيع هذا المبلغ الضخم ان يغير من حالنا ويصلح من شأننا..

- صه .. لا تذكر هذا الامر قط..

فانفجر غضب لاروك وقال متوعدا:

- حذار.. لا تتجاوزى حدود اللياقة والا عرفتك من تكلمين..

وأخذت جاكلين تنظر اليه شذرا، ثم قالت:

- لن تزيدنى بك علما..

فتجاهل لاروك هذا الجواب اللاذع، وقال فى حزم:

الا تريدين ان تفوضى الى الحصول على هذا المال؟

- كلا..

فخلع لاروك سترته ودخل خزانة الثياب وهو يقول انه لن يعجز عن الحصول على المبلغ بدون توكيل منها.. ولم تفهم فى اول الامر ما يعنيه، ولكنها سرعان ما ادركت الحقيقة. فسألته مرتاعة عما يعنيه..

فقال من داخل الخزانة: لن يتعذر على معرفة زوجك

فنهضت مترنحة وسألته : وماذا تفعل الان ؟

- أغير ثيابى للسفر الى باريس هذا المساء..

قالت في عزم: اذا سأذهب معك..

فأجاب وهو يعود الى الغرفة :

- ان بريسار لا يوافق على ذلك..

وانتصبت امامه وصاحت فى مزيج من الغضب والجزع.

- لا تحاول البحث عن زوجى..

فأجاب وهو يأخذ قبعته ومعطفه:

- سأفعل ما اشاء ..

فقبضت على صدر معطفه بكلتا يديها وحملقت فيه بعينين يتطاير منهما الشرر، وصاحت:

- لن تذهب الى ذلك البيت وترى ولدى..

فانتزع لاروك نفسه من قبضتها، ودفع بها الى السرير فى وحشية وهو يزمجر :

- اليك عنى قبحك الله ..

ودخل الى الخزانة ليأتى بحقيبته. فنهضت من سقطتها وسارت الى الباب والغرفة تدور بها، وكل من حولها يبدو احمر قانيا كأنه يغوص فى لجة من الدماء..

يجب الا يجتاز هذا الباب ولو بذلت فى ذلك حياتها.. انه يريد اطلاع زوجها على ما انحدرت اليه من العار والهوان، وسيموت ولدها خجلا من الام التى طالما ابكاها..

وراحت تتلفت حولها حائرة يائسة، واذا بها ترى على منضدة الزينة مسدس لاروك فأخذته فى لهفة. وسمعت وقع اقدامه وهو عائد من الخزانة، فاخفت المسدس فى ثنايا ثوبها.

وسار نحو الباب فوقفت فى وجهه تحول بينه وبين الخروج. ولكنه دفعها بشده نحو السرير فكادت تسقط على الارض، بيد انها استعادت توازنها بجهد شديد، وقالت وهو يغادر الغرفة.

- هاك اذا ..

تجاوبت انحاء الفندق بصوت الطلق النارى، وافلتت الحقيبة من قبضة لاروك وهو يرفع يده اليمنى الى جنبه. وراحت جاكلين تنظر اليه في رعب وهلع وهو شاخص اليها بعينيه الذابلتين..

ثم جمدت عيناه، وخر على وجهه عند قدميها جثة هامدة.

وهرع فكتور ومن ورائه جماعة من النزلاء والخدم وهى شاخصه ببصرها الى وجه القتيل، فانتزع المسدس من بين اصابعها المسترخية وهو يهتف فى صوت مضطرب:

- لقد قتلته ! اسرعوا باستدعاء الشرطة.

لم تحول جاكلين بصرها عن وجه لاروك، وقالت فى صوت فاتر:

- لا حاجة بكم الى الاسراع فلن احاول الهرب!

الفصل السادس عشر – المرأة الغامضة

خرجت جاكلين الى الشارع وهى فى غمرة الذهول والاستغراق. ولكنها لم تكد تسير مائة خطوة حتى نشط ذهنها من تبلده وجموده، وادركت خطورة موقفها.. وكان الشرطى الذى يقودها خبيرا باحوال الجناة والمجرمين. يعرف من سابق اختباره ان مرتكب احدى الجرائم الخطيرة يغلب ان يتفوه بعد ارتكاب جريمته بدقيقتين او ثلاث بمعلومات تميط الثام عما دفعه إلى ارتكاب جريمته فسألها وهما يهبطان سلم الفندق لماذا قتلت صاحبها؟

وكان جوابها أنها قتلته لكى لا يأتى عملاً سافلا يجلب العار والأسى على شخص تحبه. ولم تشأ أن تزيد على ذلك حرفاً واحداً.

وتبعهما الى مركز البوليس جمهور محنق ثائر. فالنساء يرمين المتهمة باقذع الشتائم. والرجال يهمون بالفتك بها.

ولقد ثبت ان بطء سير العدالة الذي يتبرم به كثير من الناس من اعظم النعم فى الاحوال الجنائية. اذ تطبق القوانين بعد ان تسكن سورة العواطف التى اثارتها الجريمة فلا تتحكم فى العقل. ويوكل تطبيقها الى شيوخ افنوا حياتهم فى دراسة الحيوان الادمى والنفوذ الى اعماق خوالجه وانفعالاته.

كان مسيو هنرى فلموران. النائب العام فى بوردو. من هذا الصنف من رجال القضاء وكان يقوم بواجباته في مقدره فذة ويفهمها فهما صحيحا متسع الافاق.. وكان يعرف ان مهمته هى حماية المجتمع ومعاقبة اعدائه. ولكنه يأبى الا ان يقف من المتهم موقف الحياد حتى يحصل على ما يثبت اجرامه فيتحول الى الاتهام ببصيره ثاقبة وتجاف عن الهوى والتحامل.

واتفق ان كان بمكتب صديقه المسيو فيفريل قاضى التحقيق عندما احضرت بين يديه فندق التيجان الثلاثة. فلم يكترث بها حتى سمع عرضا ما أثار اهتمامه.

بدأ المسيو فيفريل تحقيقه بالاسئلة المعتادة عن الاسم والسن ومسقط الرأس. وفى هذه الاسئلة امتحان شديد لقوة مرأس المتهم والمحقق على السواء. ودهش

القاضي والنائب العام اشد الدهشة حين لاذت المرأة بالصمت المطلق.

وأخذ المسيو فلموران يتفرس في وجهها فتبين من خلف ما رسمته الرذيلة واليأس على ذلك الوجه من السمات حطام جمال ذهب وحسن رائع..

ولم يكن للمسيو فيفريل مثل ذكاء صديقه النائب العام. ولكنه ادرك ان هذا الصمت ينطوى على باعث عميق اليم .

وقال لها في احترام.

- يجب ان تعلمي ياسيدتي ان خطتك تلحق بقضيتك اشد الضرر، ولن يصعب على السلطات الاهتداء الى شخصته، ولكنه توفرين علينا كثيرا من الهناء بالاجابة على هذا السؤال البسيط.

- أكان ذلك الرجل زوجك ؟

لم تأت المرأة بحركة، وعض قاضي التحقيق على شفته كاظما غيظه..

وسألها فجأة :-

- ماذا كنت تقصدين بقولك للشرطى الذى اعتقلك انك قتلت ذلك الرجل لكى لا يجلب العار والاسى على شخص تحبينه؟..

اختلجت شفتا المرأة اختلاجا خفيفا لا يكاد يفطن اليه. واضطربت عيناها والتقتا بعينى المسيو فيفريل الحادتين، ولكنها لم تنبس بحرف.

وراح المسيو فلموران يراقبها عن كثب فى انتظار خطوة قاضى التحقيق التالية وكان للاخير عندما يريد صوت لين ناعم شديد التأثير فى النفوس.

عاد المسيو فيفريل الى الكلام فى ذلك الصوت الرقيق الهادئ.

لا تتوهمى ياسيدتى انى اريد استدراجك الى التفوه الذى يضر بقضيتك. أننى راغب اشد الرغبة في الاعتقاد بان لديك مبررا قويا لذلك العمل كما تنبئ كلماتك.. وليس من واجبى ان القى على كاهلك عبء جريمة ارجح ان هناك عذرا قويا لك فى ارتكابها. ان القتيل من المجرمين الذين عرفتهم السجون. ولعلك بقتله قد اسديت الى الدولة بدا..

انظرى الى كصديق لك. ليس عليك الا ان تقنعينى.

- ولن تجدى اقناعى عسيرا- بأن لديك عذرا فى قتل ذلك الرجل، وقد لا تمثلين امام المحكمة قط. وقد تدفن قصتك فى صدور الرجال القلائل الذين يقفون عليها. أن كاتبى وصديقى النائب العام سيخليان لنا الغرفة. ويمكنك ان تفضى بكل شئ الى.. والي وحدى.

ثم نهض فلموران وخرج متمهلا من الغرفة يتبعه الكاتب وعاد القاضى الى الكلام قائلا:

- قد غدونا وحدنا ولك ان تتكلمى دون ان تخشى شيئا.. أخبرينى فقط بما حملك على قتل ذلك الشقى طريد السجون؟..

كان صوت القاضى الناعم يلقى فى روع السامع ان القاضى والمتهمة قد امحت من بينهما جميع الفروق. ووقفا فى مستوى واحد متحالفين على القتيل. وأحست جاكلين بالراحة والاطمئنان الى كلامه. ولم يفت قاضى التحقيق ما طرأ عليها من اللين والتخاذل فسرى فى فؤاده السرور.. ولكن صوته لم يكن يدل على شئ مما يختلج فى نفسه. ومضى فى كلامه راجيا منها الا تعتقد ان العدالة اله صماء تسير شدنا..

واختلجت شفتا جاكلين كانها تهم بالكلام. ولكنها لم تلبث ان ثابت الى رشدها وافاقت من سحر ذلك الصوت وحولت بصرها الى النافذة.

وضاق قاضي التحقيق بذلك ذرعا فقرع الجرس للشرطى وقال فى صوت خشن:

- خذ السجينة!..

وكان لصوته الحاد العنيف على المرأة المسكينة مثل لذع السياط. فترددت ومدت يديها نحوه مستعطفة. فظن مرة اخرى انه انتصر عليها ولكنها استطاعت التغلب على هذه النزوة الطارئة. وغادرت الغرفة دون ان تفوه بكلمة.

عاد المسيو فلموران الى الغرفة. ونظر اليه مستعلما فقال قاضي التحقيق في ضجر وكلال:

- لقد أبت الكلام..

واثار هذا المسلك العجيب في نفس المسيو فلموران اقصى الجد والاهتمام. فأخذ يستعرض مع صديقه تفاصيل التحقيق. وأخبره المسيو فيفريل انه كاد ينجح مرة او مرتين في استدراجها الى الكلام. ولكنه اخفق في اخر لحظة وقال:

- انك ترى ياصديقي انها من مدمني المخدرات وقد مضي عليها ثمان واربعون ساعة دون ان تنال شيئا منها. وقد يعني صمتها ان اعصابها متوترة من جراء ذلك. كما قد يعني انها ذات ارادة حديدية اذ استطاعت تكتم حقيقة امرها بهذا الاصرار والعناد.

ولقد اصاب المسيو فيفريل كبد الحقيقة. فان جاكلين ادركت في الساعات القلائل التالية لالقاء القبض عليها انها لن تقوى على خوض حرب الحوار والمناقشة مع اولئك الرجال المتضلعين في القانون. فعقدت عزمها على التخلص من هذا الخطر بالصمت المطلق وهكذا اخذت الايام تمضى. وجلسات التحقيق تتوالى دون ان يتمكنوا من استخلاص كلمة واحدة منها..

وابت ان توكل محاميا في الدفاع عنها. كما رفضت مقابلة المحامى الذى ندبته المحكمة وأخيرا نبذ المسيو فيفريل كل امل في الوقوف على سر الجريمة. وقال للمسيو فلموران النائب العام:

- ليس امامك الا ان تتصرف في القضية باعتبارها جناية قتل صريحة..

وغمغم النائب العام قائلا:

- لم نستطع الاهتداء حتى الى اسمها!

فقال قاضي التحقيق:

- اسمها مدام س. انها لاشد غموضا وتعقيدا من ايه كمية جبرية صادفتها ايام دراستى!

ثم ضحك المسيو فلموران. وراح يروى القصة لزملائه فى المحكمة. وكانت المرأة الغامضة قد استرعت فعلا انتباه مخبرى الصحف فى دور العدالة. فلما اطلق عليها المسيو فيفريل لقب «مدام س» اقرار بهزيمته. غدت قضيتها فى بوردو من «القضايا المشهورة» وظلت عدة اسابيع حديث الناس فى المقاهى والمحاكم والبيوت.

من هى هذه المرأة ؟ من أين جاءت؟ ولماذا قتلت صاحبها؟ وهل كان القتيل زوجها؟

وندبت المحكمة للدفاع عن المتهمة المحامى الناشئ الاستاذ ريمون فلوريو. فأقبل عليه كبار المحامين يهنئونه ويرجون ان تكون هذه القضية وسيلة الى التوفيق والنجاح.

ولكنهم عندما راوا القضية تغدو ملء المسامع والافواه. اسفوا اشد الاسف لان المحكمة لم تكل الدفاع اليهم.

أما المسيو فلموران النائب العام فكان مغتبطا واسفا فى وقت واحد. كان مسرورا لان الاقدار وضعت فلوريو الصغير فى مركز تحوم حوله الانظار. وكان اسفا لان القضية لا رجاء فى كسبها.

ولم تكن علة اهتمامه بأمر الشاب خفية مجهولة. فقد ادرك كما ادرك ابوه المسيو فلوريو منذ زمن غير قصير ان ريمون يحب هيلين فلموران ابنة النائب العام ذات الوجه الفاتن والعينين الزرقاوين. وأن هيلين لشغوفة كذلك بالمحامى الشاب ذى العينين الدعجاوين والشعر الجعد.

ولم يكن يخالج المسيو فلموران ادنى شك فى ان صهره المستقبل سيرقى سلم النجاح حتى يبلغ اوج المجد والشهرة. فقد ورث عن ابيه كما قدمنا عقله المنطقى وشغفه بالمحاماة. كما ورث عن امه رقه العاطفة وسرعة الحس والتأثر.. هذا فضلا عن صوت هادى رزين متناسق النبرات يحلو وقعه فى الاذان، ويسرع اثره الى القلوب

وأرسل المسيو فلوريو من تولوز بأنه سيحضر ليشهد دفاع ولده فى اولى قضاياه. كما ان «العم» نويل والدكتور شينيل سيأتيان من باريس. ووعدت روز بان ترافق هيلين الى المحكمة. وهكذا كان المنتظر ان يكون يوم المحاكمة يوما مشهودا فى حياة ريمون..

وكان الشاب ينفق بياض النهار عاكفا على اوراق القضية، ويتحدث عنها فى المساء الى هيلين. ثم يعود فيظل عاكفا على الاوراق من جديد الى ساعة متأخرة من الليل. وكثيرا ما كان يتلو على حبيبته فقرات من دفاعه بينما ابوه بالردهة يداعبهما ويتظاهر بأنه يتسقط الحديث «ليسرق اسرار الدفاع».

بيد ان ريمون كان يعلم حق العلم ان بين يديه قضيه واهية متهافته، ولكنه كان معتزما ان يبذل قصارى جهده فى القيام بواجبه.

فلما اقترب يوم المحاكمة كان مشفقا قلقا مضطرب الاعصاب، ولكنه كان على تمام الاستعداد..

الفصل السابع عشر - حبيبان

كان اليوم السابق ليوم الجلسة حافلا بالحركة والنشاط فى بيت فلوريو .. وقد جاء مسيو فلوريو من تولوز فى الليلة السابقة ، وكان مسيو فلموران معازما زيارته فى هذا الصباح ليحادثه فى شأن ولديهما اذا وجد فسحة من الوقت .

وأقبلت هيلين قبل الساعة العاشرة متلهفة الى لقاء ريمون ، الذى ذهب مبكرا الى السجن ليحاول لآخر مرة مقابلة المتهمة ، وراحت الفتاة تتحدث الى روز معربة عن أسفها لأن والد ريمون ليس رئيسا للمحكمة حتى يكون على ثقة من كسب القضية ! ..

فقالت روز فى ثقة واطمئنان : لا يساورنى أى قلق من هذه الناحية ، أن مسيو ريمون ذكى لبيب وسينجح فى اقناع القضاة ..

وهنا دخل الأستاذ ريمون فلوريو فى عجلة ولهفة ، فقالت روز وهى تخلى للعاشقين الغرفة :

- هذه هى .. بمحض المصادفة طبعا !

وحاولت هيلين أن تستعيد بعض رزانتها وهى تمد اليه راحتيها وتنظر فى عينيه الضاحكتين قائلة : لعلك لم تكن تتوقع أن ترانى مبكرة هكذا ؟

فأجاب ضاحكا : بل لم أتوقع أن أراك مطلقا ، ولعل هذا هو سبب اسراعى بالعودة !

ومضت عدة دقائق وهما صامتان ، ذلك الصمت الذى تنوب فيه عن السنة العشاق لغة العيون ونجوى القلوب .

ثم سألته هيلين :

- هل أجهدت نفسك فى العمل ؟

- نعم .. لقد أستيقظت فى الساعة الخامسة هذا الصباح لاستكمل أعداد مرافعتى وأنا الآن على أتم الأستعداد .

- سأستمع الى مرافعتك ! ..

- طبعا ، ولكن ينبغى أن أجلسك فى مكان لايقع عليه بصرى ، فأنى اذا رأيتك شرد ذهنى ولك أن تقدرى كيف تكون حالى اذا تلعثمت واضطربت ..

- وهل عولت على مفاتحة ابيك فى شأننا اليوم ؟

- أجل ساتحدث اليه بمجرد حضوره ..

- هذا حسن .. ولكن حذار أن تتلعثم وتضطرب !

وأطلت روز برأسها من الباب هامسة :

- جاء سيدى الرئيس ..

ثم أختفت .. وسمعا وقع أقدام الأب فى الردهة فهتفت هيلين فى صوت منخفض :

- والآن الى اللقاء !..

وبعد أن حيت هيلين مسيو فلوريو انصرفت مسرعة لتخلي الحجرة للأب وأبنه .

وأستجمع ريمون شجاعته واندفع قائلا في دعابة لاتخفي اضطرابه .

- امشغول ياسيدي الرئيس ؟

فأجاب المسيو فلوريو دون أن يرفع عينيه عن الصحيفة .

- جدا ! اتريد محادثتي ؟

- نعم .. وهو حديث جدي ..

فنهض المسيو فلوريو وطوى صحيفته وقال بابتسامة ماكرة :

- وهل يستغرق حديثك وقتا طويلا ؟

- هنية .. أو أني أعتقد على الأقل أنه لايستغرق كثيرا من وقتك ..

- أجتهد في الأيجاز ما أستطعت ..

فاندفع ريمون كمن يخشى أن تتخلى عنه شجاعته وقال :

- أني أحب هيلين فلوران !

- أتحبها حقا ؟

وتفرس ريمون في وجه أبيه لحظة ثم تكشفت له الحقيقة فهتف قائلا :

- أكنت عالما بذلك ؟

فقهقه المسيو فلوريو قائلا :

- لاريب أنك تحسبن شيخا مغفلا شديد الغباء !

وأدرك ريمون بغريزته أنه ينبغي أن يبادر الى الضربة التالية فقال :

- وأريد الأقتران بها ..

فأجاب أبوه :

- هذا طبيعي .. بارككما الله ، وافاض عليكما السعادة والهناءة ! أهذا كل ماتريد قوله ؟

- نعم .. هذا كل ماعندي ..

ثم راح المسيو فلوريو ينظر فى عينى ولده اللتين تشبهان عينى زوجته المفقودة كل المشابهة فاضاء فى عينيه كل مايطوى بين جوانحه من الحب لتلك الزوجة والوجد بها والأسى عليها ودنا من ريمون خطوة ووضع يده على كتفه فى رفق وهتف قائلا :

- أى ولدى .. أنك فتى كريم ، وقد كنت كل مافى حياتى من أسباب السرور والسعادة ، وأنى لاعتقد أن هيلين جديرة بك ، فعليك أن تحبوها بالحب والوفاء .. كن لها صديقا ومرشدا وعضدا كما ستكون لها زوجا ، وينبغى فوق كل شيء أن تبذل قصارى جهدك فى تعرف خلجات فؤادها ونوازع نفسها ، فليس من السهل دائما فهم النساء ، ولا تقص زوجتك عن حياتك ولا تنفرد دونها بشأن من الشئون ، بل قاسمها كل ماتحبوك به الأيام من المسرات ، وما تبلوك به من الأحزان ، وقد تعرض تلك أرقات يتكاثر فيها عليك الهم والضيق فأياك أن تنسى أن الزوج عليه مسئوليات خطيرة ثقيلة لايعفيه منها سبب من الأسباب ، وأذكر دائما ياريمون أنك مسئول عن المراة التى وهبتك نفسها وأسلمتك قيادها .

أصغى الشاب الى أبيه فى جد وهو مطرق برأسه ، فلما فرغ المسيو فلوريو من كلامه رفع رأسه وقال :

- لا أظن أن المسئولية تكون ثقيلة جدا مع هذا الحب الذى يكنه بعضنا لبعض يا أبى ..

فأجاب أبوه وهو يهز رأسه : أن الحياة تسرف أحيانا فى القسوة ياولدى ، سيحضر فلموران بعد قليل وسأتحدث اليه فى هذا الشأن، ولدى سر أحب أن أطلعه عليه قبل أن أسأله يد أبنته لك .

فتهف الفتى مرتاعا : سر !

أجاب أبوه : نعم وسأفضى به اليك فيما بعد ..

وشاع فى نفس ريمون القلق والأضطراب .. وما أسرع القلق والأضطراب

الى نفوس المحبين .

الفصل الثامن عشر - (شبح الماضى)

ظل الوالد وولده برهة مستغرقين فى تلك النجوى الصامتة البليغة ، ثم أضاء وجه المسيو فلوريو بالأبتسام وقال :

- لاتنس أنى لا أتوقع أن تكون هيلين ذات مال كثير .

فأجاب الفتى ضاحكا : ولا أنا ..

- أن لديك المائة والخمسة والعشرين الف فرنك التى خلفتها لك أمك ، وسأضم اليها كل ما أستطيع .

- سيكون عيشنا لينا ميسرا ، ويظهر انك نسيت أيرادى من قضاياى .

- ليست لديك قضايا .

- بل لدى ياسيدى قضية لن أتقاضى عنها أجرا ماديا حقيقة ولكنها أعلان ضخم يكفل لى الحصول على كثير من القضايا الرابحة .

ولما كان المسيو فلوريو من رجال المدرسة القديمة الذين لايقيمون وزنا للدعاية والأعلان فقد هز رأسة دون أن يعقب على رأى ولده بشىء . ثم سأله :

- أمستعد أنت للغد ؟

فأوما ريمون بالأيجاب .

ومضى الوالد فى حديثه قائلا :

- لقد قابلت رئيس المحكمة اليوم وهو يثنى عليك ثناء جما ، وقد أعد لى مقعد على منصة القضاة .

- أن وجودك بالجلسة حرى بأن يبعث فى نفسى الأضطراب .

أبدا .. هل القضية خليقة بالأهتمام حقا ؟

- نعم .. ولا ، هى قضية امراة تاعسة قتلت عشيقها لغير سبب معروف ، وهى تأبى الكلام وتلوذ بالصمت فى سجنها فلا نعرف من هى ولا أين نشأت ،

بل لم أرها ولم أسمع حتى صوتها .

- الم يستطع قاضى التحقيق أن يستخلص شيئا عنها ؟

- كلا وقد أطلق عليها أسم "مدام س" !!

- من أى نوع من النساء هى ؟

- أنها مدمنة على تعاطى المخدرات ، ولما كانت قد حرمت منها منذ قبض عليها لثلاثة شهور مضت ، فأنها لا تفتا تضطرب بين حالتي الجمود والهياج ، وأنى لاخشى أن تكون قضيتها من تلك القضايا التى يفرغ منها قبل نظرها : ولكنى سأبذل غاية جهودى .

- عليك بالتأثير على عواطف القضاة والمحلفين .

- هذه هى الخطة التى عولت عليها ، وقد اتفقت الأيام الثلاثة الماضية فى التمدن على أصطناع رنه البكاء فى صوتى على أن الأمر لن يكون سهلا هينا ، ومن العسير أن يختلق المرء لهذه المتهمة عذرا دون أن يعرف سبب أرتكاب الجريمة .

- بالعكس . أن هذا يفتح أمامك باب التخيل والأفتراض على مصراعيه..

وقطع عليهما الحديث صوت مرح يهتف من بعيد ، فالتفتا صوبه واذا بمسيو نويل يسرع اليما بالحديقة ، وتبادل الصديقان تحية حارة ، ثم قال نويل أريمون :

- كيف حال التلميذ الصغير القديس ايف ؟

فأجاب ريمون وهو صافحه : القديس أيف ؟

- نعم . لقد كان محاميا أوقف حياته على الدفاع عن الفقراء والبؤساء ، ولذلك يعتقدون أنه حامي المحامين ، وأن كان الكثيرون منهم يؤثرون اليوم حماية الشيطان .. أن غدا اذا وهو يومك العظيم ؟

- أنى لاأشعر بقليل من الأضطراب .. ولكن هل قطعت تلك الشقة

البعيدة حقا كى تكون هنا غدا ؟

- بال ريب .. ولو كنت فى أقصى الأرض لجئت لاشهد معركتك الأولى.

قال فلوريو : أن شينيل سيحضر أيضا ..

فقا نويل مخاطبا ريمون : هذا حسن .. أنك لم تكن فى حال تسر يوم تعرفت بالطبيب ..

فأبتسم ريمون قائلا : لقد حدثنى أبى بما كنت فيه من خطر .. أن الدكتور شينيل كثيرا ما يأتى لزيارتى .. والآن سأذهب لدراسة القضية مرة أخرى ..

- هذه أحسن طريقة .. ينبغى أن تهز مشاعر القضاة والمحلفين هزا عنيفا .. ثم من يدرى ! ربما كانت ضحية منكودة الحظ أكثر مما هى مجرمة أثيمة ..

وما كاد ريمون يغيب عن أنظار الشيخين حتى ألتفت فلوريو الى صديقه قائلا :

- ما رأيك فى ولدى ؟

- خليق بك أن تفخر به ..

وصمت فلوريو قليلا ، ثم أشار الى صديقه بالجلوس وجلس بجانبه .. كان يشعر بحاجته الى الناصح الشفيق اذا أزفت الساعة التى طالما أرتجف جزعا كلما فكر فيها .. يجب الأن أن يطلع ولده على حقيقة ماحدث لأمه ..

فكيف يستقبل الغلام الحقيقة حين يطالعه بها ؟

ولم يكن فى وسع نويل أن يدرك كثيرا مما يعتلج فى خاطر صديقه فقال :

- لا أستطيع أن أنظر اليه دون أن أفكر فى أمة ، أنه لمؤلم حقا أننا لم نستطيع خلال هذه السنين المتطاولة أن نقف لها أثر ..

فهز الزوج رأسة فى حزن وقال :

- لقد بذلنا كل مانستطيع ولم ندع وسيلة من الوسائل ولقد سافرت منذ أيام قلائل ال مونت كارلو كى أرى أمراة تنطبق عليها أوصاف جاكلين .. وعدت بنفس النتيجة ..

وأستغرق الرجلان هنيهة فى خواطرهما المحزنه الأليمة ثم رفع فلوريو رأسة قائلا :

- أنى لاظن أحيانا أنها قد ماتت والا لعثرنا عليها ..

- ربما ! ولعل هذا خير مايمكن أن يحدث لها !

وفهم الزوج مايعنيه صديقه فسرت فى جسده رعدة الهول والفزع ، ثم كاشف صديقه بما يشغل باله قائلا :

- أنى لم أجرؤ حتى الآن على مصارحة ريمون .. بحقيقة قصة أمه ، ولكن لامعدى لى الأن عن ذلك ..

فهتف نويل وهو يحملق فيه مبهوتا : أتخبر ريمون ! لماذا ؟

- أنه يريد الزواج ، فيجب أن أطلعة على الحقيقة ..

وأدرك نويل موقف صديقه فقال ؟

- وهل تخبره بالحقيقة كلها ؟

فقال فلوريو فى عزم :

- أجل .. سأخبره بكل شيء ،يجب أن يعرف الحقيقة عارية من التموية والطلاء .

وغمغم نويل بكلمات غامضة يريد بث الطمأنينة فى نفس صديقه ولكن فلوريو قاطعه قائلا :

- لا أخدع نفسى عن حقيقة موقفى أن الشباب لايعرف اللين والتساهل. وقد تبقى لى فى فؤاد ولدى بقية من الحب بعد أن يقف على الحقيقة ، ولكنه لن يفتقر لى حرمانه من أمه ..

فقا نويل فى ثقة متكلفة :

- لن ينقص شيء من حبه لك ، أنه يعلم أى نوع من الرجال أنت ، كما يعلم أنك كنت خير الأباء جميعا ، وسيقدر ما كابدت من الحزن والندم على خطئك .

فهز الزوج التمس رأسه فى قنوط قائلا :

- أن الفتى يحب ولولا ذلك لكان ثمة مجال للأمل والرجاء ، الا ترى ما سيفعل أنه مشغوف بفتاة طاهرة حسناء ، وسيحلولأن يتمثل نفسه وهو يقذف بحبيبته الى عرض الطريق تحت الأمطار الهاطله بعد أن أستلقت عند قدميه تتلوى ندما والما ، فلا ينتهى من ذلك الا الى نتيجة واحدة .. هى أننى وحش ضار !

وقبل أن يتمكن نويل من الكلام إقبلت روز من المنزل تحمل بطاقة زيارة فنظر اليها فلوريو قائلا :

- ماهذا يا روز ؟

فاجابت وهى تعطيه البطاقة :

- أنهما سيدان جاءا قبل ذلك يطلبان مقابلتك ياسيدى الرئيس..

فغمغم فلوريو وهو ينظر البطاقة :

- بريسار ؟ بريسار ؟ لا أعرف هذا الأسم ، أحضريهما على كل حال وقودى المسيو نويل الى غرفته ..

وشد الصدبقان على يدى بعضهما بعضا ثم سار نويل فى أثر الخادمة .

الفصل التاسع عشر - "الأمل بعد اليأس"

لم يجزع السيدان بريسار ومريفيل لموت لاروك ، ولم يداخلهما شيء من اليأس ، بل لقد كانا يشعران بالشكر العميق له ، اذ وفر عليهما عمولته وقدرها عشرة فى المائة من المبلغ الضخم الذى فتح أمامها سبيل الحصول عليه فضلا عن أن قتله بيد زوجه رئيس محكمة تولوز يضع هذا السيد فى موقف لايملك معه الأمتناع عن أداء ثمن السكوت والكتمان .

أخذ الشريكان يستعرضان هذه الأعتبارات فى مقهى بمدينه بوردو فى أنتظار عودة المسيو فلوريو الى بيته ، وقد مضى على وقوع الجريمه ثلاثة أشهر

أنفقاها فى البحث والأستقصاء حتى أكتشفا أنه زوج صاحبة حادث فندق التيجان الثلاثة ، وما كادا يستوقفان من ذلك حتى قصدا انى تولوز لمقابلته فعلما أنه سافر منذ لحظة قصيرة الى بوردو لحضور المحاكمة التى سيتولى ولده فيها الدفاع عن المتهمة فأسرعا فى أثره ..

وقال بريسار :

– لقد ظفرنا به يا عزيزى مويفيل ، ولقد جاء الى بوردو ليشهد المحاكمة !

قال شريكه : يا له من ماكر جرىء .

– أنه لماكر حقا ، فقد عمل على أن ينتدب والده للدفاع عنها ، وولده سيتزوج أبنه المدعى العمومى فيما يقولون ! .

قال مريفيل فى صوت كهدير الأمواج : أنه رجل ماهر جدا بلا ريب !

ولقد علمت أن زوجته أبت الأدلاء بكلمة واحدة الى قاضى التحقيق .

– طبعا ! أنما كانت فى ذلك تعمل بارشادات زوجها !

– بلا ريب .. بلا ريب ! وبهذه الطريقة لن يذكر أسمها . وبما أنه ليس فى بوردو كلها من يعرفها ..

وهز بريسار كتفيه دلالة على مايعنيه فبادر شريكه كعادته الى الشرح قائلا :

– فلن تتجاوز الفضيحة دائرة الأسرة ..

وذهب حاميا المجتمع للمرة الثانية الى بيت المسيو فلوريو وهما وثيقان أنهما قد وقفا على ما أحكم تدبيره وأستقبلهما الرئيس فى الحديقة وأشار اليهما بالجلوس فى رزانه ووقار ، ثم سألها :

– هل من خدمة أستطيعها أيها السيدان ؟

فسأله بريسار فى لهجته المهذبة : هل أتشرف بمخاطبة الرئيس فلوريو ؟

– نعم ياسيدى ، وأسمك ؟

– بريسار ، وهذا هو المسيو مريفيل شريكى ..

– وفى أى عمل جئتما الى بوردو؟

فقال بريسار : أنها مهمة على شيء من الدقة ياسيدى الرئيس ، مهمة تعنيك شخصيا ..

فرفع المسيو فلوريو حاجبيه قليلا قائلا: حسنا ؟

وتحرك بريسار فى مقعده قليلا ثم قال فى صوت رقيق مؤثر :

- أن فى حياة كل أمرىء منا سببا أو أسبابا تحمله على النظر الى الماضى فى حسرة ، ومهما بالغنا فى تكتم هذه الحسرات وأخفائها فأنها تظل كالجروح الدامية لا تندمل .

فقال المسيو فلوريو فى شيء من السأم :

- ربما كان هذا صحيحا ولكنى أرجو أن توضح قصدك .

وأدرك بريسار أنه ليست ثمة فائدة من أيراد الحكم والعظات ، فاعتزم المضى فى العمل مباشرة وقال :

- لقد كنت ياسيدى الرئيس وكيلا للنائب العام فى باريس منذ عشرين سنة ؟

- نعم ..

- واذا كانت المعلومات التى لدى صحيحة فأنك أقترنت بسيدة تدعى جاكلين ليفيفر وجاءتك ببائنة قدرها مائة وخمسة وعشرون الف فرنك .

فبدأ فى نظرات المسيو فلوريو الأضطراب والقلق وقال :

- أن معلوماتك صحيحة تمام الصحة ، ولكن الأم ترمى من وراء هذه الأسئلة كلها ؟؟

- أنها أسئلة لابد منها ، فأن الشئون العائلية التى من هذا القبيل تستوجب فى تناولها أقصى الحرص والحذر ، وقد كان أعتقادى دائما ..

فهم فلوريو بالوقوف وقد شحب وجهه قليلا وقال : أن وقتى ضيق .

- معذرة ياسيدى . ساوجز ! لم يكن هذا الزواج على ماينبغى من السعادة والتوفيق .. وفى ذات يوم حدث بينكما حدث هائل وطردت من بيتك

السيدة التى كانت تتشرف بحمل أسمك .

فسأل فلـوريو فى صوت منخفض رهيب : كيف عـرفت هذا ؟ من أنبأك: به؟

فهتف بريسار : أذن هذا صحيح ؟

ولم يجب فلوريو فـحمل بريـسار صـمتـه على محـمل الأقرار وأسـتطرد قائلا:

- هذا حـسن جدا ! رحلت مـدام فلوريو بعـد هذا الحادث الى بلاد نائيـة جدا ، وهى تتفيا ظلال السعادة حينا وتصلى نيران الشقاء حينا آخر .

- هل ماتت ؟ أجئت تحمل الى نبا موتها ؟

وأبتسم بريسار بخبث ، اذ كان يقدر المهارة فى التمثيل حق قدرها ، وقال :

- كلا .. ما جئت لذلك ، ولا تزال على قيد الحياة .

فهتف فلوريو فى لهفة :

- أين هى ؟ فى باريس ؟ فى فرنسا ؟ أين ؟

وبدأت الحيـرة تتسرب فى نفس بريسـار ، ايجهل هذا الرجل حـقا من هى صاحبة جريمة فندق أتيجان الثلاثة ؟ وسأله :

- أتعنى حقا أنك لا تعرف أين زوجتك الآن ؟

- كلا .. كلا .. ولكنك جئت لتنبئنى بذلك .. أليس كذلك ؟

كـان فلوريو فى أشد اللهـفة وهو يـتمـشى جيئة وذهابا أمـام الرجلين فى خطوات سـريعة مضـطربة ، وينظر اليهـما بعـينين تشتـعلان أشـتعـالا .. وقال بريسار :

- أن هذا لعـجيب حـقـا ! لقد كـنت أظن أنك بما يجتـمع له من وسـائل البحث والأستقصاء ...

وكان فلوريو يهتز لهفة وانفعالا ، فقال :

- أتعرف أين هى وأين أستطيع لقاءها ؟

قال بريسار : أعرف ذلك دون شك ..

فصاح فلوريو : خبرني أذن يارجل !

وراح بريسار يحك ذقنه مفكرا .. أن أنفعال فلوريو ولهفته يتيحان فرصا ثمينة لا ينبغي أن يفسدها بالعجلة والأندفاع ، وقال بعد قليل :

- لم يؤذن لى باطلاعك على مكانها .

فقاطعه فلوريو قائلا : أقادم أنت من قبلها ؟ أنت وكيلها ؟ ماذا تريد ؟ وأى شيء أستطيع عمله لها ؟

- أنها تريد المال الذى قدمته لك يوم زواجها .

- ماكنت لاتوانى عن أعادته اليها منذ زمن طويل أو عرفت مكانها ..

فقال بريسار وقد ألتمعت عيناه الخنزيريتان : أنك لا تمانع أذن ؟

- لا أمانع على الأطلاق ، أن المال هنا ..

فنهض الشريكان ، وهنف بريسار : سأنقل اليها ماتقول .. كلمة كلمة ..

- أذاهب أنت لمقابلتها ؟

- سأكتب اليها .. ولكن فى وسعى أن أظهرك على أمر واحد فيما أظن دون أن أخل بواجبات مهنتى .

فسأله فلوريو متلهفا : نعم ..

فتظاهر بريسار بالتردد ، ثم قال : أن مدام فلوريو الأن فى عسر شديد ، وهى لاتملك سنتيما واحدا ..

وأستطرد بريسار : أتحب أن تبعث اليها شيئا من النقود ؟ فهب فلوريو واقفا وأسرع يمد يده الى جيبه قائلا :

- بكل تأكيد ! هل تعمل على ايصاله اليها .. فى الحال ؟

فقال بريسار : دون أضاعة لحظة واحدة ..

وأطرق فلوريو برأسه يفتح حافظة نقوده فلما رفعها كانت عيناه مغرورقتين بالدموع وقال :

- معذرة أيها السيدان فيما تريان من فرط تأثرى وانفعالى ، فأنه ليحز فى نفسى أن أفكر أنها بين انياب الفاقة والشقاء ، هذه الثمانئة فرنك وهى كل ما أحمل الآن من نقود ، أرسلها اليها فى الحال و.....

فقاطعه بريسار قائلا :

- ستصلها اليوم ، أسمح لى بأن أعطيك ايصالا ، متى أستطيع مقابلتك ثانية يا سيدى الرئيس ؟ أيوافقك بعد غد ؟

- سأنتظرك صباح غد .

ولاحت على شفتيه أبتسامه الغبطة والأمل وهو يمد يديه نحو زائريه قائلا :

- سنذهب معا لمقابلتها ، لا أحسبنى فى حاجة الى أن أرجو منكما الكتمان ! ينبغى الا يعلم بهذا الأمر أحد .

فرفع بريسار رأسه فى أنفة وقال : سيدى الرئيس ! لم أحظ بشرف التعرف اليك قبل آليوم ، ولكن أذكر هذه الكلمات : أن بيننا عهد شرف على التزام الصمت .. شريكى وأنت وأنا !

وهتف مريفيل : صمت سكان القبور !

فمد فلوريو يده مودعا وهو يقول بصوت مضطرب شكرا لكما أيها السيدان .

وأنصرف السيدان بريسار ومريفيل وهما يكثران من توكيد حرصهما وحفظهما للأسرار ..

وقف فلوريو بعد أنصرافهما لحظة رافع الرأس مضموم القبضتين ثم هتف من أعماق نفسه كان جاكلين منه بمسمع ومرأى :

ثم أنطلق الى المنزل عبر الحديقة وأخذ يصمد درجات السلم وثبا كانما عاودته قوة الشباب وخفته ، وأندفع الى غرفة نويل والدموع تنهمر من عينيه دون أن يستطيع نطقا ، ورفع نويل رأسه عن حقيبة ثياب كان عاكفا عليها ونظر الى صديقه مشدوها ثم صاح :

- بربك ماذا حدث يا لويس ؟
- جاكلين .. جاكلين على قيد الحياة ؟
فوثب اليه نويل وراح يهز كتفه بشدة قائلا :
- ماذا تعنى ؟ على قيد الحياة ؟ من أنبأك بهذا ؟
فقص عليه فلوريو القصة فى انفاس لاهثة وعبارات مضطربة مقعطة ، وما كاد صاحبة لم بالأمر حتى أستخفه الطرب وراح الشيخان يتدافعان ويتلاكمان ويضحكان بكل مافيهما من قوة فى مثل مرح الصبية الأغرار وعبثهم ..

الفصل العشرون - المحاكمة

وصل ريمون الى المحكمة فى صبيحة يوم الجلسة مبكرا وفى وجهه من دلائل الجد والأهتمام ما يدل على شعوره بثقل المسئولية الملقاة على عاتقه ، فلما زاده الأمعان فى درس القضية الا اقتناعا بأن أملة الوحيد فى كسبها رهن ببلاغة دفاعة وبخاصة فى التأثير على عواطف المحلفين وأستدرار رحمتهم .

وأخذ ريمون مكانه من مقاعد المحامين بجانب قفص الأتهام وهو مضطرب أشد الأضطراب ، وأزداد أضطرابا عندما دخل القضاه والمحلفون وأعلن الكاتب افتتاح الجلسة .

وكانت القاعة تكاد تضيق بمن أحتشد فيها من النظارة .

كما أقبل عشرات المحامين ليشهدوا أولى مرافعات زميلهم الجديد ، والقى ريمون نظرة سريعة على الصفوف الأمامية فطالعته أبتسامه خيلاء وأعجاب على شفتى هيلين ، وأوما اليه نويل والدكتور شينيل مشجعين ، ولوحت له روز بيدها متهللة ، وإرتد ببصره مسرعا الى أوراق القضية عندما أدخلت المتهمة الى قفص الأتهام .

أخذت مكانها من القفص وهى تبكى واضعه منديلها على عينيها ، وظل ريمون يلاحظها متأثرا ، وحاول أن يفوه بشىء من كلمات المواساه والتشجيع

فعاصاه لسانه ولم يسعفه الز بغمغمة غامضة لا تؤدى معنى .

لقد شهد ريمون قبل ذلك كثيرا من المحاكمات ولم يكن يجهل شيئا من أجراءات المحاكم فى القضايا الجنائية ، ولكنه يراها اليوم شاقة مرهقة ، ولا عجب فى ذلك ، فقد كان بالأمس متفرجا كغيره من المتفرجين ، أما اليوم فأنه صاحب دور فيها سوف يكون له أكبر الأثر فى حياته .

ولم يكن يشعر من كل مايحيط به الا بأن أباه وخطيبته هيلين لايحولون أنظارهما عنه ، وخيل اليه أن صوت الكاتب ينبعث من مكان سحيق وهو يتلو صحيفة الأتهام ؟

" .. وبناء عليه تكون المرأة المدعوة لاروك فى ٣ أبريل سنة - ١٩ الساعة الخامسة والنصف مساء قد أرتكبت جريمه القتل عمدا بالغرفة رقم ٢٤ بفندق التيجان الثلاثة ضد خليلها فردويك لاروك ، وهى جريمة يعاقب عليها بالمادتين ٢٩٥ ، ٣٠٤ من 'قانون العقوبات".

فرغ الكاتب من التلاوة ، وساد فى قاعة الجلسة سكون عميق ، ثم سمع ريمون رئيس المحكمة يخاطب المتهمة فى وقار قائلا :

أيتها المرأة لاروك .. أنت متهمة بقتل خليلك فردريك لاروك عمدا فماذا تقولين دفاعا عن نفسك ؟ أتسلمين بأنك مذنبة ؟

أنتهى كلام الرئيس ، فأستدار ريمون فى مقعده نحو موكلته ، وشخصت اليها جميع الأبصار ، وكانت ترتدى ثيابا سوداء ثيابا سوداء ، وعلى رأسها خمار أسود يكاد يحجب كل وجهها فلا يبدو شىء منه الا لاقرب الجالستين اليها .

لم تأت المرأة بحركة تدل على أنها سمعت كلام الرئيس .

وعاد الرئيس يقول :

- أترفضين الأجابة ؟ أتصرين على الصمت كما فعلت أثناء التحقيق ؟ أرجو منك لمصلحتك دون سواها أن تتكلمى .

وسكت قليلا ثم قال :

- أن الأمر بين أيدى المحلفين ، ستسمعين الأن شهود الأثبات ، كاتب الجلسة .. أدع الشاهد الأول .

وسرت بين الحضور حركة ودمدمة عندما جلس الرئيس وهتف الكاتب .

- فكتور شوكيه ! فكتور شوكيه !

وكان بريسار ومريفيل قد تمكنا من الجلوس أحد الصفوف الأمامية وأخذا يراقبان ما يدور بالجلسة فى جد وأهتمام ، فهمس بريسار :

- ماذا قلت لك ياعزيزى مريفيل ؟

- أن الأمر كله مدبر حقا !

وبينا القوم فى انتظار دخول خادم فندق التيجان الثلاثة جعل ريمون يتفرس من موكلته والعجب أخذ منه كل مأخذ ، ما عسى أن تكون ذات المأساة الرهيبه التى تخفيها هذه الأسارير الجامدة المستغلقة ؟

أما المرأة فقد حولت وجهها نحو القضاة كأنها لا تشعر بوجوده، ثم رأها ريمون وقد أتسعت حدقتاها فجأة وأخذ صدرها يعلو ويهبط بعنف وشفتاها تضطربان كأنها تحاول الكلام ، فنهض مسرعا وأنحنى فوق القفص وسألها بصوت منخفض ؟

- ماذا أصابك يا سيدتى ؟ أمريضة أنت ؟

فأنثنت اليه ذاهلة مستغرقة وقالت دون أن تحول بصرها عن مقاعد القضاه بصوت لايكاد يسمع :

- من هذا السيد الذى يكلم القضاة ؟

أجاب ريمون : أنه المسيو فلوريو ورئيس محكمة تولوز .

وظن ريمون أنها آرادت بهذا السؤال التافه أخفاء سبب ما عراها من الأضطراب فاستطرد قائلا فى الحاح :

- صدقينى ياسيدتى .. أن صمتك سيفضى الى خسارة قضيتك فأتوسل

اليك أن تتكلمى !

ولم يسع ريمون أن يهز كتفيه عجبا من أمرها ويأسا من أقناعها ، ويستقر فى مقعده صارفا عنايته الى أستجواب شوكيه .

ولما وقف شوكيه خلف حاجز الشهود قال رئيس المحكمة :

- أذكر أسمك وعمرك ومهنتك .

- فكتور ايمانويل شوكيه ، عمرى تسع وعشرون سنة ، ومهنتى خادم بفندق التيجان الثلاثة :

- أرفع يدك اليمنى ، أتقسم أن تتكلم بلا حقد ولا خوف وأن تقول الحقيقة كلها ؟ قل " أقسم على ذلك" .

- أقسم على ذلك :

- أنزل يدك . قل شهادتك .

وأخذ فكتور يتحرك فى موقفه قلقا واضطرابا ثم التفت نحو المحلفين قائلا:

- فى ٣ أبريل جاء الى الفندق رجل وأمراة ..

فقاطعه الرئيس :

فى أية ساعة ؟

- بعد موعد الأفطار بقليل .

- أستمر .

- وكان معهما صندوق وحقيبة ، فصعدت بهما الى الغرفة رقم ٢٤ بالطابقة الأعلى ثم جئتهما بزجاجة من الأبسنت وشىء من السجاير .

فسأله الرئيس ؟ هل شربا كثيرا ؟

- لم أنتبه الى ذلك .

- كيف كانت حالة المراة ؟

- لم تكن لها حالة على الأطلاق ..

فسرت بين الحضور ضحكة مكتومة وفرغ المحضر منضدته .

وقال الرئيس متبرما :

- هل كان يبدو عليها السرور أم الكآبة ، والهدوء أم الأضطراب ؟

ففكر فكتور مليا ثم أجاب : كان يبدو عليها الكلال والأعياء :

- أستمر .

- وبعد قليل صعدت اليهما زوجتى للوقوف على البيانات التى تدرج بنموذج البوليس وأخذت أسميهما .. مسيو ومدام لاروك من بونس أيرس فى طريقهما الى باريس :

- هل كانت زوجتك بالفندق ؟

- نعم .. كانت خادمة هناك .

فسأل القاضى كاتب الجلسة مغضبا :

- لمذا لم تعلن لتأدية الشهادة ؟

وحك فكتور عينيه بيده وهو يصعد زفرات الألم ثم قال :

- أنها ليست هناك الآن ، فقد تركتنى فى مساء يوم الجريمة ولم أرها بعد ذلك ، وبعد بضعة أيام كتبت الى تقول : " لا تقلق على ، أننى سعيدة جدا ، أعتن بالطفل ".

تحرك الحضور فى أماكنهم وسرت بينهم غمغمة شفقة وتأثر ، فعاد المحضر يفرع منضدته بشدة ودلائل العطف والتأثر فى وجه الرئيس اذ رأى فكتور يمسح عبراته . وأمهله ريثما يتمالك جأشه قبل أن يطلب آليه المضى فى شهادته.

وبعد لاى أستطرد فكتور القول :

- وحوالى الساعة الخامسة والنصف كنت أحمل ماء الى أحدى غرف ذلك الطابق فسمعت طلقا ناريا وصيحة بالغرفة رقم ٢٤ ، فأسرعت الى هناك حيث وجدت المسيو لاروك صريعا على الأرض أمام زوجته ، وفى يدها مسدس ينبعث منه الدخان ، ثم أخذت المسدس منها ومنعتها من الحراك .

- هل قالت شيئا ؟

قالت : لا حاجة بكم الى الأسراع فلن أحاول الهرب .

- أهذه كل معلوماتك ؟

- نعم ياسيدى الرئيس .

ونظر الرئيس اليها قائلا :

- أيتها المتهمة .. قد سمعت أقوال هذا الشاهد فهل لديك ماتقولين ؟

ولكن جاكلين لم تكن تشعر بوجود الشاهد ولم تع من أقواله قليلا ولا كثيرا ، أنها منذ عرفت زوجها أزدحمت فى خاطرها الأفكار الجنونية الجامحة ، ومضت تتوارد عليها فى سلسلة من الصور السريعة المضطربة ، وأوحى اليها ما يملأ نفسها من الحقد القاتل العنيف يكثير من أساليب التشفى والأنتقام التى يتحيها الموقف الحاضر، الصيرالى أن يبدو للناس عارها فى أبشع الصور ثم تعلن الى هذا الجمع الحاشد أنها زوجته ؟ أم تسير الى ساحة الأعدام ثم تفضحه وتصب عليه العنات من فوق المفصلة ؟

كلا ! أنها لاتستطيع من ذلك شيئا حتى لا تلبس ولدها ثياب الذلة والعار ، أنما قتلت لاروك لتخفى عارها عن ولدها ، فكيف تستطيع الآن أن تعلنه ؟

ولكن .. الا يمكنها أن تعلن مايكفى لإظهاره على ما تكن له من المقت والبغضاء ؟

أنها لتستطيع أن تتصور وجهه وقد عرفها وأحاط بقصة سقوطها وأنحدارها ، وأنها لمسرورة اذ لم تترك رذيلة من أقبح الرذائل وأحطها دون أن تتمرغ فى حماتها وتتلوث بأوضارها ، ففى هذا ما يضاعف من غصصه والأمه حين تعلن اليه الحقيقة الرهيبة الهائلة ..

وقال الرئيس : اتصرين على الصمت ؟

فقالت فى صوت لم يكد يسمعه ريمون على قربه منها :

أنتظر قليلا ! أنتظر لحظة !

والتفت الرئيس نحو المسيو فلموران النائب العام قائلا :

- هل يريد حضرات المحلفين توجيه أسئله الى الشاهد ؟

فأجاب النائب العام : كلا ياسيدى الرئيس .

- هل يريد محامى المتهمة سؤال الشاهد عن شىء ؟

فقا ريمون :

- ذكر الشاهد أن موكلتى كانت تحتسى الأبسنت فهل يعتقد بأنها كانت ثملة ؟

فتردد فكتور قليلا ثم أجاب :

- كانت منفعلة جدا دون شك ياسيدى الرئيس ..

وسرت بين الحضور حركة وغمغمة ، فشعر ريمون أنه سجل لنفسه فوزا وقال للشاهد :

- هل ترى أنها كان ثملة . !

فعاد الشاهد الى صيغتة القديمة قائلا :

حسنا يمكن أن يعدها فريق من الياس ثملة ويعدها أخرون غير ثملة ..

وضحك الحضور جميعا من هذه المراوغة وقطب الرئيس جبينه، وسألة ريمون :

- ولكن ما رأيك أنت !

فبلغ الأضطراب بالخادم أقصاه وقال متلعثما :

- أنا .. لا رأى لى !

وأستقر ريمون فى مقعده بائسا .

فقال الرئيس ليدع كاتب الجلسة الشاهد الثانى ..

وكان الشاهد الثانى هو الجاويش فونتين الذى أعتقل المتهمة : ولم تخرج شهادته عما يعرفه القراء ..

لم توجه اليه أسئلة من الأتهام ولا الدفاع . بيد أن شهادته أحدثت بنفوس

المحلفين أثرا واضحا شعر معه ريمون أن أثارة عواطف الرحمه فى صدورهم لم تعد أمر هينا .
والتفت الرئيس الى جاكلين قائلا :
- قبل أن يتكلم النائب العام أسألك للمرة الأخيرة مراعاة لمصلحتك وحدها أن تفضى الى المحكمة بالبواعث التى حملتك على أقتراف الجريمة . أترفضين الكلام ؟ هل عقدت عزمك الا تتفوهى بكلمة ؟
وصمت قليلا ثم قال :
- حضرة النائب العام ..
ووقف المسيو فلموران فى تؤدة وتمهل ، وأنحنى لرئيس المحكمة ثم للمحلفين ، ولم تكن هذه أول مرة يشهد فيها قضية امراة ساقطة تقتل رجلا من الأوغاد ، فلم يكن عليه الا أن يعيد مرافعة سبق أن القاها مرارا ..
وهمس بريسار فى أذن زميله :
- وصلنا .. أن القضية الأن فى حكم المنتهية !
ثم بدأ المسيو فلموران مرافعته فى صوت عذب قائلا :
- سيدى الرئيس .. سادتى المحلفين . لن تشغل مرافعتى كثيرا من وقتكم فأن الجريمة التى ينبغى أن تصدروا حكمكم فيها واضحة لا غموض فيها ولا التواء ، مريعة لاعذر فيها ولا شبه عذر .. لقد قتلت المرأة الماثلة أمامكم عشيقها ولكن من تكون هذه المرأة ؟ من أى البلاد جاءت ؟ لسنا ندرى من هذا كله كثيرا ولا قليلا ! فقد أبت المتهمة أن تجيب على الأسئلة التى القيت عليها منذ أعتقالها ..
أبت أن تفوه بحرف واحد أمام قاضى التحقيق ، وهنا أنتم تشهدون بأنفسكم تشبثها بذلك الصمت فى أصرار وعناد .
قد أجد أحيانا فى البواعث التى تحمل على أرتكاب جريمة القتل تعليلا للجريمة وأيضاحا لها اذا لم نجد لصاحبها عذرا فى أرتكابها ، وجرائم القتل

ترتكب لأسباب مختلفة ، منها المال والحب والغيرة ، وتلك النزوة الجامحة التى تدفع يد المجرم و تسلبه التروى والتفكير ووزن العواقب ، هذه النزوة تخفف الى حد ما من مسئوليته ، كما تخفف الروع الذى تحدثه جريمة القتل بنفوس الناس جميعا .

فأذا أبدى أمام المحكمة سبب من الأسباب ، جاز أن يأخذ يد العدالة الباطشة شيء من الرحمة والرأفة .. ولكن كيف يمكن أن يطلب منكم أن تلتمسوا عذرا فى جريمة تأبى المتهمة أن تميط اللثام عن أسبابها ؟ أن هذا الرفض وحده ليفرض علينا الأعتقاد بأن أسباب هذه الجريمة من شر الأسباب وأولاها بالتشدد فى العقاب ، أننى شخصيا أسيء الظن بهذا الغموض الكثيف الذى تحيط به المتهمة نفسها ، وليس فى وسعى أن أشعر بشيء من العطف على أمراة ترتكب مثل هذه الجريمة المنكرة ثم لاتنطق حتى بكلمة واحدة تدل على الأسف والندم !

وما كاد النائب العام ينطق بهذه الكلمة حتى دوى فى أرجاء القاعة صوت قوى واضح النبرات :

- سأتكلم عاجلا ! ..

أحدثت هذه الصيحة بقاعة الجلسة تأثيرا بالغا عجيبا .

فكف المسيو فلموران عن الكلام ، وشخصت الى المتهمة الأبصار ..

ترع المحضر على منضدته حتى أستتب النظام وساد السكون ، واخذ المسيو فلموران يتدارك ماحدث فأستأنف مرافعته فى صوت هادئ ثابت كأنه لا يكترث لتلك المقاطعة ولا يعيرها أدنى أهتمام فقال :

- قلت أيها السادة المحلفون أننا لانعرف شيئا عن أصل هذه المرأة ولا لاروك ، ولم نعثر على مايدل على أنها كانت من سكان فرنسا فى وقت من الأوقات ، وليس يعرف فى بونس أيريس من أين جاءت ولا أيه ريح ألقت بها اليها .

لم ترتكب مايوقعها تحت طائلة القانون خلال أقامتها بأمريكا الجنوبية بقدر ماعلم وفى شهر مارس أستقلت الباخرة "الأمازون" الى بوردو ، ولم يلاحظ عليها أثناء الرحلة أكثر من أنها كانت تقرأ المستقبل للمسافرين بواسطة أوراق اللعب ، وأنها كانت تذكر أنها واثقه أنها ستقضى نحبها عما قريب ، ولذلك فهى تتعجل العودة الى فرنسا وهذا أيها السادة هو كل ما أستطعنا الوقوف عليه من ماضيها المطوى فى أحشاء الغموض والظلام .

وقد وصلت فى صباح يوم ٣ أبريل الى فندق التيجان الثلاثة ، وفى منتصف الساعة السادسة قتلت خليلها ، وهو رجل ذو ماضى مريب ، له سابقتان فى جرائم السرقة ، وقد سمعتم شهادة الخادم فيما يتعلق بشدة أنفعالها وليس ثمه مايحدو بى الى التعقيب على هذه الشهادة بشىء ، ولا الى البحث فى مسئولية المتهمة المعنوية وهل يمكن أن تكون قد تأثرت بفرط الأنفعال الناشىء من الخمر ، وأنما أترك هذه الناحية من القضية لمحامى الدفاع صديقى الأستاذ ريمون فلوريو ..

وهنا طغت على صوت النائب العام صيحة مدوية هائلة ووقف كل من بالقاعة فى هلع وفزع .

كانت المتهمة تترنح فى وقفتها ترنح الشارب النمل ، وقد أطبقت جفونها وتراخى ساعداها على جانبيها ، ويداها تنبسطان وتنقبضان فى نوبه عصبية ، وأمسك بها رجلان من رجال الشرطة يحاولان أجلاسها ولكنها راحت تصيح:

- رباه ! رباه !..

وكان ريمون قد بادر اليها ومس ذراعها محاولا تهدئتها .

وصاح أحد النظارة :

- كفوا بالله عن تعذيب هذه المنكودة !

كانت هذه الصيحة ايذانا باشتداد الصخب واللجج فجعل المحضر يقرع منضدته بعنف حتى كادت تتحطم ، ولكن ذلك الجمهور الثائر مضى يهتف فى

صوت كقصف الرعد :

- اليكم عنها ! أنها تحتضر*!..

وهمس نويل فى أذن الدكتور شينيل :

- بالله ! أنها جاكلين ؟ زوجة فلوريو !

ولم يكد الطبيب الشيخ يسمع هذه الكلمات حتى تخطى الحاجز الذى يفصل بين النظارة وهيئة المحكمة وثبا ، وأخترق نطاق الجند المضروب حول القفص ، ولكن جاكلين كانت قد عادت الى مقعدها وراحت تشير اليه بالعودة من حيث أتى . فانحنى عليها ريمون يسألها : أمريضه أنت ؟ أأطلب تأجيل القضية ! ..

قالت : لا .. لا .. انى .. بخير !

كانت مغمضة الجفون وشفتاها تختلجان كأنها تحاول الكلام ، وأمسك الطبيب بمعصمها الأيسر وراح يهمس فى أذنها بكلمات المواساة والتشجيع وهو يربت على كتفها فى رفق وحنان ففتحت عينيها فى بطء وقرت فى مقعد.

سكنت الضجة فجأة كما بدأت ، وعاد النظارة الى مقاعدهم خجلين والرئيس يتلظى غضباً ، وقال فى حدة :

- هذا ولا ريب أسوا ماشأن المحاكم الفرنسية ! لئن صدر أى صوت آخر من الحضور لأمرن بأخلاء القاعة فى الحال .

وتطلع نويل الى صديقه فلوريو وهو جالس خلف القضاة ليتبين هل أدرك من هى "المرأة لاروك ".

كان فلوريو يخفى وجهه بين راحتيه وقد وضع منديله على عينيه..

وعاد المدعى العام يقول :

- أما بواعث هذه الجريمة فأنى أكرر القول بأننا لانعرف منها قليلا ولا كثيرا ولكنى أرجو أن يتاح لنا الوقوف عليها بعد أن وعدت المتهمة بالكلام .

تتكلم ! أتراها تتكلم حقا !!

كان ريمون واقفا ووجهه الى المدعى العـام ، ويده اليمنى على حاجز قفص المتهمين وهو بادى الأضطراب والأنزعاج وجاكلين ترنو اليه بعينين يمتزج فيهما الحب بالجـزع ثم مـدت يدا مضطربـة متـرددة وقـبضت على أصـابعـة فى رفق وحنان .

أن بين الأم وولدها روابطِ خفيه تدق عن حواسنا وأقسيتنا الجسدية ، روابط لاتتـقيـد بقـيـود الزمان والمـكان ، ولايقوى علـى فصم عـراها ترادف السـرور والألم، واليـسر والعـسر ، ولقـد قيل أنهـا اللون الوحيـد من ألوان الحب الذى لاتشوبه الأنانية والأثرة ، ولكنها أسمى من ذلك وأجل .

فأن الولد أذا مـاتحالف عليـه الشقـاء المادى والعذاب النفـسى ليتعـلق بأمة تعلق الغريق بالخشبة الطافيه . ويرى فيـها سبيله الوحيد الى النجاه والخلاص ، والأم حين تجود بأنفاسها بـين العار واليأس لاتزال ترى فى ولدها القوة العلوية التى تطهرها من رجسها وتكفل لها الخلود !

ومـا كاد ريمون تمـس أصابعـه مـعصم جـاكلين حـتى ضـاقت هذه الرابطة القدسـية حول فـؤاده وأشتـدت ، فخيل اليـه أن روحه تخـترق حوائل الجـسد وتنطلق نحو تلـك المرأة التعسة الـتى لايعرف من هى ولم يرها قبل اليـوم ، أما ماخـالج قلب الأم المنكود فى تلك اللحظة فهـيهات أن يدركه غـير أمثـالها من الإمهات .

تتكلم !! ..

أنهـا لتـؤثر أن ترتكب الف جـريمة قتـل أخرى على أن تفـوه الآن بحـرف واحد..

وقال المسيو فلموران :

– ولكم أيها السـادة بعد أن تسـمعوا أقوالـها أن توازنوا بين صدق توبتـها وندمهـا وبين شناعـه جرمهـا ، وتجعلوا من ضـمائركـم حكمـا عدلا يتكـافا مع جريمتها من العقاب .

سرت بين الحضور هلهمة عندما جلس المدعى العام ، وهمس بريسار فى أذن زميله :

- لا أحسب المدعى العام قد أجاد التمثيل !

فأوما مريفيل برأسه موافقا دون أن يحول بصره عن قفص الأتهام حيث كانت المرأة تنتحب ، ونظر البهاريس المحكمة قائلا فى رفق :

- أيتها المرأة لاروك .. أراغبه أنت الآن فى الأجابة على أسئلتى! ..

ولكنها لم تجب كأنها لم تسمع كلامه فقال :

- لقد قلت منذ دقائق أنك ستتكلم .

فرفعت جاكلين وجهها الذى أغرقته دموعها الهاطلة وأرتسمت عليه معالم الأسى والعذاب ، ومدت يديها كأنها تتقى ضربة موجهة اليها ، وصاحت وهى تتهالك على مقعدها : كلا .. أن أتكلم أبدا !

قال الرئيس : فكرى لحظة ، ودعينى أنصح لك لآخر مرة بالعدول عن هذا العناد .

ولكنها لم تجب إلا بعاصفه من البكاء أهتزت لها قضبان القفص، وغمغم الحضور متأثرين فدق المحضر منضدته بشدة .

الفصل الحادى والعشرون - فتش عن الرجل

بذل ريمون مجهودا عنيفا فى استجماع شتات قوته وعزمه. والسيطرة على أعصابه الثائرة المضطربة. وبعد لاي استطاع ان يعتدل فى وقفته ويواجه المحكمة.

ولم يكن اقل من المتهمة شحوبا واصفرارا وهو يغالب عاطفة جامحة مازالت تضطرم فى صدره منذ مست هذه المرأة اصابعه.. عاطفة تصرف ذهنه عن كل شئ سواها وتملك عليه مذاهب الحب والتفكير.

انه لم يعرف قبل ذلك من الشقاء الانسانى غير ما يرويه الرواة ويصفه

الواصفـون. أما اليوم فان الحـقيقـة تمثل له عارية مجـردة فى شخص هذه المرأة القابعة فى قفص الاتهام. وانه ليعـرف الان هذا الشقاء الذى يزهد ضحاياه فى الحياة ويحبب اليهم الموت.

لو عـرف هذه الحقيـقة قـبل ذلك ! لو خالجـه هذا الشـعور حين كان يـعد دفاعه!..

دفاعــه ؟!..

ان ذهنه الشارد المقـسم لا يذكر قليلا ولا كثيـرا من ذلك الدفاع الذى انفق فى اعداده اقصـى ما فى وسعه من الجهـد والوقت! انه ليحاول جـهده ان يذكر حتى الكلمات الاولى من مرافعته فتخونه ذاكرته الخامدة!.

والتقت عـيناه بعينى ابيه فى لمحة خـاطفة فرأى من هلع القاضى الـشيخ ما ذهب بالبقية الباقية من شجاعته وعزمه.

لا ريب ان اباه يرى انه سيخفق ويخجله!

ولكنه لا يمكـن ان يمضى فى هذا الصـمـت المعيب الى مـا شــاء الله. ولا مناص له من ان يبدا دفاعه على اى وجه من الوجوه..

حاول من جديد ان يذكر فـاتحه مرافعته فلم تسعفـه الذاكرة بكلمة واحدة. وكبـر على نفسـه أن يمنى بهذا الفـشل الذريع. وان يعجـز دون الابانة عن هذه العـاطفـة التى تتلظى بين جـوانحـه وتأكل فؤاده أكـلا. فـتبـادرت الدمـوع الى عينيه!..

كان الحضور سكوتا كان على رءوسهم الطير. ثم سعل احد المحامين فثاب ريمون الى نفسه وكاد ينفجر باكيا أو يولى هاربا من المحكمة.

ولكنه جاهـد نفسه جـهادا عنيفـا وانحنى أمام القـضاه ومر بظـهر يده على عينيه يمسح ما سال من عبراته. ثم قال فى صوت مضطرب:

– سادتى الـقضاة والمحلفين! لا استطيع.. ولن أحاول .. أن اخفى العاطفة الغـامـرة التى .. تفـعم نفسى وانـي لارجو.. بل اثق.. انكـم تلتمـسـون لى

عذرا..

انى لأود ان اظل هادئا ساكن الجأش. ولكن عينى تفيضان بالدمع برغم ما ابذل من جهد.

ومر بيده على عينيه مرة أخرى ثم قال:

- أن قلبى ليخفق خفقانا شديدا. وأن صونى ليضطرب ويكاد يحتبس. ولولا ما ابذل من جهد لرأيتمونى أبكى كالطفل الغرير بدلا من ان ادافع عن موكلتى. ولعلكم ايها السادة تغفرون لى هذا الضعف. وان كنت لا أرى فيه ما يخجل ويشين.

هذه أول مرة فى حياتى الس شقاء المرآة لمسا. وشد ما اشفق من ان اعجز دون النهوض بالمهمة النبيلة التى اضطلعت بها وليس فى وسعى ان اذكر شيئا من الاسباب والحجج التى كنت قد اعددتها لاقناعكم واثارة رحمتكم وعطفكم. فقد انمحت من خاطرى تلك العبارات المنمقة بمجرد ان شهدت الم هذه الباسة وعذابها.

انظروا اليها ايها السادة. فهيهات ان تكون لكلماتى من القوة ما لدموعها الهامية.

وهنا تهدج صوته واحتبس. فلم يعد ثمة غير صوت لشيج جاكلين ونحيبها. ورأى فى وجوه القضاة ما يشف عن حسن اصغائهم وتأثرهم.. فأخذ الوجل يفارقه واستطرد قائلا:

- ان ثمة لحجابا من الغموض يحيط بهذه المرأة التى اتولى الدفاع عنها. ولم تستطع اقوال الشهود ان تنفذ الى ما وراءه. فمن هى هذه المرأة الباكية اليائسة؟ اين نشأت ولماذا قتلت الرجل الذى تعاشره؟ لسنا ندرى.

فى وسعها هى دون الناس جميعا أن تبدد هذه الغياهب والظلمات وتجلو لنا هذا السر الخفى ، ولكنها تأبى أن تفوه بكلمة واحدة .. فلماذا ! هل تبغى من وراء ذلك تضليل العدالة ! كلا دون ريب ، فلو كان هذا ماترمى اليه

لتكلمت وحاولت تبرير فعلتها، لاجئة الى الكذب وانتحال الحجج والمعاذير ..

ولقد كان في وسعها أن تختلق ألف عـذر وعذر .. كان فى وسعها مثلا أن تزعم أنه أستـعمل القسـوة معهـا فقتلتـه فى لحظة ثورة وجنون .. ولم يكن فى مقـدور أحد من الناس أن يكذبها فى مـثل هذه الدعوى ، فليس ثمة من شـهد ماحدث قبيل أرتكاب القتل مباشـرة اذ لـم يكن بالغرفة مع المتهمة غير لاروك ، ولاروك ميت لايستطيع الكلام ! ..

ولكن موكلتى أنفت من الكذب والأنتحال .. ولم تحاول التملص من تبعة عملها بالرغم من أنها على بينه من خطورتها ووخامتها .

قـالت تخدم الفندق وهـم ينتزعـون المسدس مـن يدها "لا حاجـة بكم الى العجلة فلن أحاول الفرار " ولاذت بعـد ذلك بصمت مطلق عميق .. لماذا ؟ أن هذه الكلمـات نفـسهـا تفـصح لنا عن السـبب أيهـا السادة ، وترفـع جانبـا من الحجـاب الصفيق قـد تختفى الحـقيقـة وراءه ، وقد أخبرنـا الشرطى الذى القى القبض عليها أنه سألها لماذا قتلت لاروك فـأجابته " لقد قتلته لامنعه من أن يأتى عملا سافلا بغيضا يجر الشقاء على شخص أحبه" .

وهتف ريمون بصوت يزداد قوة وأرتفاعا :

- وفى هذه الكلمات أيها السادة مايميط الثام عن سر هذه المخلوقه المنكودة البائسة ..

لقد قتلت ذلك الرجل لاروك الذى لانجـد فى ماضية شيئـا من الخير قل أو كثـر كما قال بحق صـديقى المدعى العام ، قتلت ذلـك الرجل الذى حكم عليه مرتين فى جـرائم السرقة والذى لـم يكن يحجم عن ذنيـه .. من الدنايا أو جريمة من الجرائم قتلته لان فى قتله الوسيلة الوحيـدة لاتقاء قضية تجلب الياس والعار على شخص تحبه!

ألا يُعلل هذا صمـتها العجـيب الذى تلوذ به فى أصرار وعناد ؟ هذه المرأة المحطمـة التـعـسـة التى هوت الى أدنى دركـات الشـقـاء المادى والأدبى ، هذه

المخلوقة المنكودة .. تحب ! وأن فضليات النساء ليضممن اليهن أطراف ثيابهن اذا لقينها فـى الطريق لئلا تتلوث بلمسهـا . ولكن فيضا من الحب النبـيل يغمر فؤادها ، وسعادة ذلك الشخص الذى تحبه أثر عندها من حياتها ..

وأنهـا لترى ذات يـوم هذه السعـادة التى تحـرص عليـها وهى تـتخـبط فى ظلمات اليـأس والشقاء ، تراها مهددة فى خـطر ، فتقتل .. تقتـل فى غير تردد ولا أحجام ذلك الوغد الذى يوشك أن يقوضها ويحيلها أثرا بعد عين .

وشـعر ريمون أن كلمـاته قد خلبت الـباب سـامعـيه وأستـهـوت قلوبهم . فـذهب عنه الخـوف والتـهيب ، وتـدفق الكلام كالـسيل المنـحدر فـمـضى فى مرافعته قائلا :

– كان الحب هو الدافع لها الى مافعلت .. فمن هذا الذى تحبه حبا لاتحجم أمامه عن التضحية بنفسهـا ؟ أهو والد يحظى فى شيخوخته بالتجلة والأحترام من كل من يعرفـه ؟ أم هو ولد لايدرى بعار أمه ويعـيش فى جهله هذا سعـيدا وادعا ؟

لسنا ندرى ! ولـكن حـبـا من هذا النـوع هو بلا ريب سـر مـوكـلتى وعلة صمتها ، فليس يعنيها أن يسلقها الناس بالسنة حداد ، وليس يعينها أن يروا فيها مجرمة أثيمه تستحق المقت والأزدراء ، وهى تقـدم على التضحية بحياتها ذاتها راضـية قـريرة العين ، بـيد أنه ليـست هناك من قـوة تستطيع أن تحـملهـا على الأفضـاء ألينا بحقـيقة شـخصـها ، لأن هناك شخـصا تحبـه فوق الحـياة ، وهى تحرص آلا يعرف أسمـها حتى لايشوه الحكم الذى يصدر عليهـا الصورة النقية المرسمة لها فى فؤاد ذلك الشخص الذى تحبه وتعبده .

أيها السادة القضاة والمحلفون ! أن المراة التى تغمر فؤادها مثل هذه العاطفة السامية النبيلة لايمكن أن تكـون من الصنف العادى من المجرمين ، وأنى لاشعر شعورا قـويا يسمو الى مـرتبة اليقين بأنى مسـتطيع أقناعكم بأن المرأة الماثلة بين أيديكم ليست بالمجرمة الخبيثة النفس الميـتة الضمير ، ولقد قلب رجال البوليس

الأرض والسماء ابتغاء معرفة شخصيتها فآبوا بالخيبة والفشل ، وفى هذا الدليل القاطع على أن هذه هى أول جريمة ترتكبها ، والا لوجد رجال البوليس أثرا يهديهم الى ماضيها .

ولايمكن أن يخالجنا أدنى ريب أيها السادة فى أن المسئول عن سقوط موكلتى وترديها فى هاوية الأثم هو رجل من الرجال ، واذا مازلت المرأة وتمرقت فى حماة الرذيلة ، فما ينبغى أن نصب على رأسها صواعق غضبنا ونقمتنا وما ينبغى أن نجعلها الهدف الذى نرجمه بأحجارنا .

أن رجلا ما قد أحدث هذا الشر والفساد ! لقد غرر بها أو أساء معاملتها ! أنه حبيب غادر لاضمير له ، أو زوج أوتى قليلا من الخلق الكريم ، وكثيرا من الغرور والكبرياء .. زوج قاس تحجر فؤاده وغاضت منه الرحمة والرفق ، فحكم عليها عند أول عثرة بحياة الخطيئة والعار .

ولئن كانت القوانين الوضعية قاصرة عن عقاب مثل هذا الحبيب السافل الغادر أو ذلك الزوج المجرم القاسى ، فأن الله ليس بغافل عنه ، والله أعدل الحاكمين !

أجل أيها السادة .. أن رجلا من هذا الصنف هو الذى جعل من المتهمة ماترون ، وهذا الرجل دون سواه هو المسئول عن كل ذلك .

ولا ريب أن هذا الوغد الجبان يعيش سعيدا قرير العين هادى الضمير محترما من الناس ، ولكنه فى نظر العدالة الالهيه يقف مع هذه المرأة فى مستوى واحد أو أدنى منها ! .

وأنى بأسم القانون الألهى الأسمى ، وبأسم أمهاتكم وأخواتكم أهيب بكم أن تتصفوا هذه المراة التى كانت حياتها لعبة فى يد رجل كان ينبغى أن يمثل الأن أمامكم بدلا منها .

ووقف عن الكلام ورأسة يكاد يلتهب . فترامت الى سمعه الزفرات المكبوته التى تكاد تنشق عنها قلوب الحاضرين من الرجال والنساء ، والتفت

نحو مقاعـد القضاء فعجب أشد العجب اذ رأى أبـاه مطرقا ينتفض ، وخال أن بلاغته قد أخذت بلب هذا القاضى الذى لايعرف اللين سبيلا الى فؤاده وانى له أن يعرف أية غـصة قـد أحدثها بصـدر أبيه ! أنى له أن يعـرف أن هذا الغضب النبـيل الذى أندلعت نيرانه من أعـماق قلبـه الطاهر قد جـعل من لسانـه سوط عذاب يدمى فؤاد ذلك الشيخ !

ولقد أحس نـويل بما تحدثه كلمات الـفتى من الألم والعذاب بنـفس أبيه ، وكاد يقاطعه ولكنه مضى فى مرافعته قائلا :

- وقد ذكر صديقى المدعى العام فى مرافعـته البليغة أن القتل قد يكون فى بعض الأحيان جـديرا بالصفح والغفران ، وأن موجـه الأنفعال التى تطغى على تفكير الجانى فتدفع يده الى القتل قد تنهض عذرا له .

وأنى لأسـألكم أيها السـادة بحق ضمـائركـم .. هل هذه المرأة مذنبـه ؟ هل تسـتحق العـقاب لأنهـا محت مـن الوجود ذلك الوغـد المجرم الذى كـان يريد القضاء على سعادة الشخص الوحيد الذى تحبه ؟ أتستحق هذه المنكودة العقاب على الصمت الذى تلوذ به فى بطولة خليـقة بالأعجاب لتنقذ أسمـها من العار لأجل شخص آخر ؟

كلا أيهـا السادة والف كـلا ! أن مجرد التـفكير فى هذا ليـشير فى أعـماق نفسى أشـد المعارضـة والأحتـجاج ، وما أشك فـى أنكم تشاطروننى شـعورى وعاطفتى .

أيها السادة القضاة والمحلفون : أن قضـيتى عادلة ، وسيكون قراركم مؤيدا لعدالتها ، وأنى لاترقب الحكم فى ثقه وأطمئنان ، فأذا خاب ما أرجوه وقضيتم بالأدانه لو مع أستعمـال الرأفة ، فلن يدل هذا الا على معنى واحد ، هو أننى لم أكن كفؤا للأضطلاع بمهمة الدفاع عنها .

واذا حـدث هذا ، وأتمنى الا يحدث ، فـسـأظل طول حيـاتى أشـعر باشـد الأسى والأسف على قصورى عن الأعراب عمـا يفعم نفسى من عاطفة ويقين

يدفعنى الى أن أصيح بملء فمي : أن هذه المرأة ليست مذنبة !

الفصل الثانى والعشرون - المرأة المجهولة تتكلم

لم يكد ريمون يفرغ من دفاعة حتى أستلقى على مقعده خائرا مجهودا .
وهم رئيس المحكمة بمخاطبة المحلفين واذا به يقاطع على غير انتظار .
كان فكتور شوكيه اقل الحاضرين تأثرا ، لا لقسوة قلبه وجمود عاطفته ، بل لأنه كان من الغبـاء والبلادة بحيث لم يفهم شـيئا مما دار فى الجلسة بين سـمعه وبصره ، وراح يتلهى بتقليب بصره فيما حوله فى بلادة وفضول ، واذا به يلمح رجلين يصغيان فى جد وأهتمام دون أن تسيل من مافيهما عبرة .
وهتف شوكيه : معذرة ياسيدى الرئيس !
ونظر اليه الرئيس وقال متبرما : الديك ماتريد الأدلاء به .
فنظر شوكـيه الى حيث يجلس صاحـبا "شركة المأموريات الـسرية" وأشار اليهما قائلا ؟
- هذان الرجلان جاءا الى الفندق قبل وصول السفينة وسائلا عن لاروك ، وأقبلا مرة أخرى بعد وصولة فأخذتهما الى غرفته حيث أجتمعا به ، وقد خرجا مع المسيو لاروك فغابوا وقتا طويلا ثم عاد وحـده قبل مصرعه بخمس عشرة أو عشرين دقيقة .
ونظر القضاة الى الرجلين وهما يحاولان الأستتار .. وغمغم الرئيـس :
- هذه معلومات هامة . الديك أقوال أخرى !
فأجاب شوكيه وهو يجلس : كلا ياسيدى الرئيس ..
وقال الرئيس : أيها الحاجب ، أحضر هذين الرجلين أمام المحكمة ، أن من حقى أستجوابهما كشاهدين وأن لم يسبق أعلانهما ، وسأستعمل هذا الحق .
وأخذ الحاجب يدنو من صـاحبى شركة "المأموريات السرية" وهمـا يتلفتان حولهما كأنهما يلتمسان مهربا وهمس بريسار فى أذن صاحبه :

- عليك بالحرص والحذر ، أمسك لسانك ودع لى كل شىء ..

ثم تقدم بريسار الى موقف الشهود وهو ينظر الى رفيقه محذرا ، والشرطة يسيرون به الى غرفة الشهود ..

وراح بريسار ينظر الى القضاة وعلى شفتيه تلك الأبتسامة الناعمة التى تنبىء عن هيبة وصلاح .. فسأله الرئيس :

ما إسمك ولقبلك ؟

- روبير هنرى بريسار ..

- أخبرنا بكل ماتعرفه عن مقتل لاروك ..

- لا أعرف عن هذا الحادث شيئا ياسيدى الرئيس ، ولا أستطيع أن أفهم .

فقاطعه الرئيس فجأة : أكنت تعرف لاروك ؟

فأجاب بريسار وهو يتكلف لهجة الصراحة والصدق :

- عرفته منذ عدة سنوات فى باريس ، ومنذ ستة شهور تلقيت منه كتابا يسألنى فيه أن أجد له عملا ، فعرضت عليه وظيفة بمكتبى وذهبت لمقابلته عند وصوله .

ونبه صوت الشاهد مسيو فلوريو من ذهوله وأستغراقه فخيل اليه أنه سمع هذا الصوت من قبل ، ورفع وجهه الشاحب الممتقع ، فلم يكد بصره يستقر على بريسار حتى عرفه ..

وسأله الرئيس : هل جئت من باريس الى بوردو خصيصا لمقابلته ؟

- كلا ياسيدى الرئيس ، بل كنت أفتتح فى بوردو فرعا لمكتبى..

- وهل هذا هو سبب قدومك اليوم أيضا ؟

فنظر بريسار الى فلوريو نظرة بطيئة ذات معنى ، ثم قال :

- كلا ياسيدى ، بل أن قادم فى مهمة خاصة ، مهمة على أعظم جانب من الدقة تتعلق بشرف أسرة معروفة ، وأرجو أن أوفق فيها..

- وماذا كان حديثك مع لاروك ؟

فأجاب بريسار متظاهرا بعدم الأكتـراث : كان حديثا من أحاديث الأعمال الَعادية ، فألقيت اليه قليلا من التعليمات عن نظم العمل بمكتبى ..

- ألا تعرف شيئا عن حادث قتله ؟

- لا أعرف شيئا على الأطلاق ياسيدى الرئيس ..

- هل تعرف المتهمة ؟

فراح بريسار ينفرس فى المتهمة فاحصا مدققا فعل المتشكك غير الواثق ، ثم قال .

- لقد رأيتها مع لاروك ، ولكنى لا أعرف من هى ..

قال الرئيس : قد ..

ولكنه لم يلبث أن قطع كلامـه مدهوشا اذ رأى المتهمة تنتـصب واقفة وهى تشير بيدها المعروفة الى بريسار ..

وصاحب جاكلين بصوت أجش رهيب تردد صداه فى جوانب القاعة .

- ولكنى أعرفك .. وأنت السبب الحقيقى فى هذه الجريمة .

وهب الحضـور وقوفا وقـد أذهلتهم المفـاجأة ، وراح المحقق يـدق منضدته طالبـا التـزام النظام ، وهتـف بريســار وهو يرتد الى الوراء مـتـصنعـا الدهشـه والعجب :

- أنا ! أنا !؟

فأجابت جاكلين :

- أجل .. أنت ! لقـد أكـتشـفت أننى كنت مـتـزوجة وهجـرت زوجى ، وأوحيت الى لاروكِ بالبحث عن زوجى ومطالـبته بالبائنة التى دفعتـها اليه عند زواجى .

وكثيـرا ماوجد بريسار نفسه فى مـازق حرجة لم ينقذه منها سـوى حضور بديهته وسيطرته على أعصابة ، وهكذا لم يـكن من العسير عليه أن يتغلب على الصدمـة التى أصابته فأنثنى نـحو الرئيس وقال فى هدوء : لقد أخـبرنى لاروك

عرضـا أن زوجته أصـيبت فى العام الماضى بحـمى التيـفود وأن قواها العـقلية تأثرت من جراء ذلك .

على أن مثل هذه الحـيلة لم تكن لتحـول بين جاكلين وبين الكلام، فـقالت وهى تنظر الى فلوريو الذى كان يرنو اليها بعينيه الحزينتين:

- لقد كـدت أقضى نحـبى حقا فى العـام الماضى ، وأضطرنى المرض الى حلق شـعـرى ، ولعـل هذا هو السـبب فى خـفـاء شـخـصـى على من كـانوا يعرفوننى!

فأخفى فلوريو وجهه بين يديه وهو يرتجف الماء ، وقبض نوبل على الحاجز الذى أمامه بكلتا يديه ، وصاحت جاكلين بصوت جهورى وهى تواجه بريسار من جديد :

- ولكنى لست مـجنونة ! لقـد توسلت الى لاروك الا ينـقاد لتـحـريضك واغرائك فأبى أن يستجيب لرجائى ، وكان محالا أن أتركه يلقى ولدى فقتلته!

سرت فى القـاعة همسات والوعيـد والأستنكار ، ودمدمة السـخط والغيظ المكظوم ، وبدت على الحـاضرين أمـارات التـحفـز ، وأسرع ريمون الى قـفص الأتهام فطوق خصر جاكـلين بذراعة وأجلسها فى رفق وحنان ، ولكن الرئيس لم يشـعر بتلك الضـجة وكـان يشاور زمـلائة ، ثم قال للشـاهد عندمـا عادت السكينة والهدوء :

- يمكنك أن تنصرف ، الشاهد الثانى !

أسرع بريسـار نحو البـاب ولكن رجال الشـرطة أعترضـوا سبـيلة اذ أشار اليهم المدعى العمومى بذلك وهو يقول :

- كلا يامسيو بريسار ، لا تغادر المحكمة من فضلك فقد نحتاج اليك ثانية

.

فاحـتج الشـقى قائلا : لقـد أذن لى رئيس المحكمة فى الأنصـراف ، ولدى عمل هام .

أجاب المسيو فلموران في لهجة حازمة : ولكنى أطلب اليك البقاء .
وسيق الى مقعد الشهود وهو يقـو حالقا : لست أفهم معنى لهذا ! أننى لم أعلن رسميا طبقا للمادة ٣١٣ من قانون تحقيق الجنايات .. هذا تصرف شائن !
ولكن لم يحفل بـه أحد .. وجاء الحاجـب بشريكه موريفـيل يمشى متمـهلا ويكثر من التحية والأنحناء ، تبدو على وجهة المتفخ أمارات الثقة والإطمئنان .
ورمقة رئيس المحكمة في نفور وأشمئزاز وهو يسأله : أسمك ؟ ولقبك ؟
- موديست هيانسنت مريفيل .
- ما الذى تعرفه عن مقتل لاروك ؟
فبسط مريفيل كفيه قائلا : لا شيء ياسيدى الرئيس .
فقال الرئيس متجهما : لا شيء ؟
أجاب مريفيل مؤكدا : لاشيء على الأطلاق .
- هل لك معرفة بالقتيل .
- كلا ياسيدى الرئيس .
- الم تره قط ؟
أجاب الشاهد على الفور : مطلقا .
وضحك بعض الحاضرين وجعل بريسار يلعن زميله بصوت مكتوم .
قـال الرئيس الم تذهب لمقـابلته في غـرفـته بفندق التيـجان الثلاثة يوم ٣ أبريل؟
- كلا ياسيدى الرئيس ..
وعاد الحـاضرون الى الضحـك ، فبدأ العـرق ينصب على جبين مـريفيل ، واضطربت نظراته أمام نظرات الرئيس القاسية ..
وقال الرئيس : حذار .. لقد رآك خادم الفندق ..
فنظر مريفيل الى بريسار في قلق يستلهـمه مايقول ، ولكن هذا خشى سوء العاقبة فلاذ بالصمت ..

وقال مريفيل أخيرا وهو يتصنع الهدوء والثبات :

- لاريب أنهم مخطئون ياسيدى الرئيس ..

فدمدم زميله حانقا : يالك من حمار !

ونهض المسيو فلموران المدعى العام فجاة قائلا :

- سيدى الرئيس .. أن مسلك هذين الرجلين يدعو الى الريبة والشك ، وطبقا للمادة ٣٣٠ من قانون تحقيق الجنايات ، أرجو أن تأمروا بالقبض عليهما فورا بتهمة اليمين الكاذبة ..

فوثب بريسار بخفه لا تلائم جسمه المتكور وهو يهتف :

- أنظروا .. ليس الذنب ذنبى اذا كان هذا المغفل .

وقاطعه شريكه وهو يخطو نحوه مغضباً : من هو المغفل ؟

قال الرئيس : أيها الشرطة .. أقبضوا على هذين الرجلين .

فصاح بريسار : لا حق لكم فى ذلك .. أنه ..

فقاطعه الرئيس : خذوهما .. !

وزمجر مريفيل : سوف أنتقم ..

فهتف شريكه : أصمت يامغفل

وأقتادهما رجال الشرطة وهما يقاومان ويهددان ويسبان المحكمة تارة ، ويسب أحدهما الأخر تارة أخرى .. والجمهور يشيعهما بالصفير وعبارات المقت والأزدراء ..

ولا يفوتنا أن نشير هنا الى أن هذا كان ختام حياتهما الشريرة الآثمة ، فقد حكم فيما بعد على مريفيل بالسجن بتهمة اليمن الكاذبة ، ولكن التهمة لم تثبت على شريكه وأناط مريفيل اذ رأى بريسار ينجو بدونه ، فانقلب شاهدا للأتهام وأطلع مسيو فلموران على كثير من "عمليات" بريسار ، وأنتهى الأمر بالحكم على الشريكين مددا طويلة .

وسكن الهرج الذى أحدثه القبض على الشريكين ، فالتفت الرئيس نحو

المتهمة يطلب اليها الكلام قبل أن يختلي المحلفون لاصدار قراراهم ..

ودهش الرئيس عندما رأها تقف متثاقلة ، وخيم على القاعة سكون عميق ترقبا وأنتظارا .. وقالت جاكلين في صوت خافت مضطرب وهي شاخصة ببصرها الى الجدار :

– لقد قال المحامي عني كل مايمكن أن يقال .. لن أنسى كلماته وأني لاشكره من صميم فؤادي ..

وأراجف صوتها وتوقفت عن الكلام هنيهة ، ثم أستطردت قائلة :

– أنه أصاب الحقيقة فيما قال .. فلم أكن شريرة آثمه بطبعي .. وأنما حطم حياتي نزل جبان ، وذفع بي الى ما ترون من الشقاء والعار .

وسمع الرئيس زفرة اليمه تنبعث من فلوريو ، ولكنه لم يحول بصره عن المرأة .

ومضت جاكلين تقول : أعترف أنني أسأت اليه ، ولكني ندمت على ما فعلت ندما بغض نفسي الي . وتوسلت اليه الصفح والغفران ، توسلت اليه جاثيه في ذلة وضراعة ، ولكنه طردني .. قذف بي الى عرض الطريق .. أنا زوجته .. وأم ولدة ؟

بفضلة تمرغت في حماة الدنس والعار .. وبفضله كابدت الموت الف مرة .. وبفضله غدوت من القتلة المجرمين !

ثم صاحت بصوت مرتجف أنفعالات :

– أني لابغضه وامقته من أعماق قلبي .. وسألعنه وأنا أجود بآخر أنفاسي !

كفت جاكلين عن الكلام لاهثه مضطربة الأنفاس تكاد تغص بريقها ، وراح فلوريو يرتجف في مقعده أرتجافا عنيفا وتصاعدت الزفرات في أنحاء القاعة .

وجلس المحلفون سكوتا كان على رؤسهم الطير ، وجعل ريمون ينظر اليها

وصدره يزدحم بالعواطف العنيفة المثيرة وهو لا يدرى لماذا لا تجرؤ على النظر اليه .

ثم أستأنفت كلامها فى صوت يذوب رقة وحنانا : بيد الى لا أشكو ولا أتبرم .. كلا .. لست أشكو .. أن لى ولدا أحبه .. أحبه فوق ماتصف الكلمات.

ولكنه لايعرفنى ولله الحمد ، ونبرات صوتى لا يمكن أن تحدث صدى بفؤاده ، أنه لن يرانى ، ولن يعلم بعارى وستظل ذكراى فى خاطرة غامضه جميله عذبة ، فقد فرق بيننا وهو لا يزال طفلا هو الآن بعيد عنى .. جدا ولكنى أحبه ، وقلبى باجمعه له ، وليست لى فى الحياة سوى أمنية واحدة ، هى أن يعيش سعيدا هانئا .. أن .. أواه !

وأنتهت كلماتها بانه طويلة موجعة ، ثم تهاوت على مقعدها حائرة القوى.

الفصل الثالث والعشرون - الحكم

لم يستطع ريمون ببلاغة دفاعة أن يبلغ من نفوس القوم مابلغه أعتراف جاكلين على أيجازه واضطراب عباراته .. وأثنى رئيس المحكمة الى المحلفين قائلا فى لهجة قانونية :

- أيها السادة المحلفون ، أن عليكم أن تجيبوا عن هذا السؤال : هل المتهمة مذنبة فى جريمة القتل التى حدثت يوم ٣ أبريل ضد عشيقها فردريك لاروك ؟

واذا رأت الأغلبية فى حالة الأدانة أن هناك ظروفا مخففة فيجب أن يكون قراركم بهذه الصيغة : "تعتقد أغلبية المحلفين أن هناك ظروفا مخففه فى صالح المتهمة" .

وأنى أوجه أنظاركم الى أن مداولتكم يجب أن تكون سرية فأرجو أن تنسحبوا الى حجرة المحلفين ، رفعت الجلسة .

غـادر النظارة أماكنهم وأطلقـوا لالسنتـهم العنان فسـادت القاعـة الضجـة واللغط . وسار الشرطة بجاكلين الى غرفة السجن فى أنتظار النطق بالحكم .

أمـا فوريو فـقد تحـامل على نفـسه الى حـجـرة المدعى العام وحـاول نويل اللحاق به فلم يدركة ، وتبعه الدكتور شينيل ، فاستوقفهما ريمون وهو عائد بعد أن صحب جاكلين ال باب غرفة السجن ..

وقال ريمون : أتظن يا دكتور أنهم سيقضون ببراءتها ؟

فأجاب الطبيب وعلى فمه ابتسامه رقيقة :

- أعتـقد ذلك ؟وسـتكون مدينة لك بحـياتها ياولدى . أتظـن ذلك ؟ لقد خيل الى أننى فشلت فى مرافعتى فشلا ذريعا ..

فقال نويل : بل كان دفاعك رائعا خليقا بالأعجاب ..

فـهـز ريمون رأسه شـاكـرا وقـال : أن هذا القـول تفـضل منك ، ولكنى لا أكـتمك أننى أشـعـر بأشد الفـخـر اذ ابكيت أبى ، وهو الرجل الحـديدى كمـا يسمونه !

- أنه لنجـاح رائع أن يستطيع مـحام ناشىء مـثلك استدرار دمـوع رئيس محكمة جنايات أخرى ولو كان والده ؟ هاقد اقبل والدك .

أستـعاد فلوريو شـيئـا من قوة أعـصابة ورباطة جـاشه خلال الدقـائق التى مكثها بمكتب المسيو فلموران المدعى العام ثم أسرع للقاء ولده اذ كان يعرف أن الفتى سـيحزنه الا يـكون والده فى طليعه مـهنئية ، وتـقدم ريمون لملاقاته فـقال فلوريو فى اضطراب .

- شكرا لك يا ولدى .. شكرا لك ! لقد كان دفاعك مجيدا رائعا !

ثم تخاذلت سـاقاه فتهـافت على أحد المقاعـد ، وحملق فيه ريمون مـرتاعا وهو يقول :

- ماذا بك يا أبى ؟

فرفع فلوريو يده كأنه يريد أن يبعده عنه وقال لاشيء .. لا شيء..
وأسرع نويل قائلا : يظهر أن الأنسه فلموران تريد محادثتكم ياريمون ..
فالقى الشاب نظرة سريعة على القاعة فرأى هيلين تحاول الأتصال به ، والشباب أسرع الى تلبيه نداء الحبيب منهم الى رعاية الوالد ، فوقف ريمون قليلا ثم سار الى خطيبته .
وقال فلوريو فى صوت خافت وهو يتحاشى نظرات صديقه :
- لقد عرفت من هى طبعا !
فأوما نويل بالأيجاب دون أن يتكلم .
وأستطرد فلوريو قائلا : أنها جاكلين بلا ريب .. وهذه هى الخاتمة التى أنتهت اليها ! هذا من صنعى ! جاكلين ! جاكلين .
وراح المسكين يئن أنينا محزنا فقال نويل : وما الذى أعتزمت فعله ؟
فأجاب فلوريو وهو يهز رأسه فى حزن لا أدرى ..
فما رأيك أنت ؟
فقال : أعتقادى أن أوان التفكير فى هذا الأمر لم يحن بعد وقد يكون من الخير أن نترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى ولا نظهر ريمون على الحقيقة اذا صدر الحكم بأدانتها .
أما اذا قضى ببراءتها فلا مناص لك من مكاشفته بكل شيء .
فتنهد فلوريو وقال: كيف أجرؤ على أخباره الأن ؟ يا الهى ؟ لسوف يضم لعناته الى لعناتها ، ولسوف أفقده كما فقدتها !
وهنا دق الجرس مؤذنا بعودة المحكمة فانتبه نويل مبهوتا ودفع صديقه الى مقعده وهو يقول : قضى الأمر ! أن المحلفين لم يستغرقوا فى المداولة وقتا طويلا ..
ثم أردف قائلا : هون عليك ياصديقى ولا تيأسى فسنجد من هذا الأمر مخرجا ..

أخـذت الجمـاهيـر تتدفق من أبواب القـاعة . فلـم يكد القضـاة يأخـذون أماكنهم حتى أزدحمت من جديد .. قال الرئيس :

أيها السادة المحلفون .. الينا بقراركم ...

فوقف مـقرر المحلفـين واضعا يده عـلى صدره ، وقال فـى صوت أجش : أقـسم بشرفى وضـميـرى أمام الله والـناس أن قرار المحلفين هو : أن المتـهمـة ليست مذنبة ..

قابل الجمهور هذا القرار بالهتاف والتصفيق ، وعمت القاعة مظاهر السرور والأبتهاج ، أما فلوريو فقد ظل مطرقا برأسـة .. وأمر الرئيس باحضار المتهمة ، فجيء بهما بين حارسيها وفى وجنتيـها حمرة قائيه لم تكن بهما من قبل ، وفى عينيها بريق غير عادى ..

وقال الرئيس : كاتب الجلسة .. أقرا الحكم .

وكان الكاتب منهـمكا فى كتابة الحكم بالصيـغة القانونية المعـتادة ، فوقف يقرأ من ورقة فى يده : "قرر المحلفون أن المتهـمة ليست مذنبه، وبناء عليه تعلن المحكمـة براءة المتهمـة من الجريمة المنسـوبة اليهـا وتقرر اطلاق سـراحهـا وتأمر بالأفراج عنها فورا ما لـم تكن محبوسة لسبب آخر .. رفعت الجلسة "

وهنا دوى فى أرجاء القاعة صوت جـاكلين وهى تتخبط بين أيدى الحراس صائحة :

- كلا .. كلا .. كلا .. أدعونى أموت .. أريد أن أموت ! .

وعم الهرج والأضطراب مـن جديد ، واختلطت صـيحات الغـضب ببكاء النساء .. فهتف الرئيس ، أخلوا القاعة ..

راح رجـال الشرطة يدفـعون الجـماهيـر نحو الأبواب ، وصـارت الضجـة مريـعة هائلة ، ولكن صـوت جاكلين كـان يعلو فوقـها وهى تصيح ، أريد أن أموت .. أريد أن أموت !

وكان ريمون أول من وصل اليها يتبعه الدكتور شينيل ونويل ثم فلوريو ..

وهتف ريمون : بربك يا دكتور .. أسعفها .. !

الفصل الرابع والعشرون - القبس الخابى

لم تكد الجماهير تغادر قاعة الجلسة حتى تهاوت جاكلين على مقعدها غائبه عن الصواب .. فبادر رئيس المحكمة اليها وأمر بحملها الى مكتبه .. ولما نقلوها الى المكتب خرج الرئيس وتركها لعناية الدكتور شينيل ونويل وريمون .

وذهبت روز الى غرفة الرئيس فأستقبلها الدكتور شينيل عند الباب ، وأصدر اليها تعليماته عما ينبغى اخضاره من الدواء ثم عاد الى جانب المريضة .. بينما راح نويل يضع تحت أنفها أملاحا منعشه، وريمون يبلل صدغيها بالكولونيا ، أما فلوريو فقد وقف ممتقع الوجه بعينين يرتسم فيهما الهول والجزع ، وهمس فلوريو بصوت متقطع :

- أهى فى خطر ؟

أجاب الطبيب دون أن يحول بصره عنها :

- ليس فى وسعى أن أقطع الأن برأى ، أن حاله القلب سيئة جدا .

فانثنى فلوريو متنهدا ، وهتف نويل : أظن أنها تحركت الآن بادكتور !

قال الطبيب وهو يهز كتفيه نعم .. أنها تعود الى ركبدها .

اختلجت عينا جاكلين وفتحتهما فى بطء وتثاقل . ثم تنفست تنفسا طويلا ، فانحنى عليها الدكتور شينيل قائلا :

كيف حالك الآن ؟

فازدردت ريقها وأخذت تقلب بصرها فى الوجوه المحيطة بها ، وكان فلوريو متنحيا ناحية لا تراه فيها .

وغمغمت فى ضعف وتهافت : لست بخير .. أنى محطمة خائرة .. أين أنـــا ؟

أجاب شينيل : فى المحكمة .. بغرفة الرئيس .

فهتفت مذعورة وهى تهم بالقيام : الرئيس !

ويظهر أن نويل أدرك ما يحتلج بخاطرها فاوما الى فلوريو وريمون بمغادرة الغرفة ، ولما أغلق الباب دونهما مال عليها حتى كادت شفتاه تمسان أذنها وغمغم جاكلين :

فنظرت اليه بعينين ذاهلتين وقالت دون أكتراث : يظهر أنك تعرف أسمى ، من أنت ؟

وأخذت تتفرس فى وجهه طويلا ، ولم يلبث العرفان أن أشرق فى ذهنها فهتفت :

فصاحت جاكلين وهى تقبض على دراعة وتحدق فى وجهه :

- نويل ! نويل ! أنت

أجاب مبتسما : أجل .. أنا نويل ؟

فأمسكت يده وأخذت تضغط بها فى خدها المرة بعد المرة قائلة .

- شكرا الله ! لم أعد وحيدة ! نويل . نويل .

فقال فى رقة وحنان : أمسروره أنت برؤياى حقا ياجاكلين ؟

فقالت منتحبة وهى تتعلق به كأنها تخشى أن يختفى فجأة كما ظهر :

- نويل ! نويل ! أرث لى .

- لا تتحدثى عن الشفقة والرثاء فقد أصبح الماضى نسيا منسيا .

- أواه ! كان فى وسعى النسيان .

- فى وسعك بلا ريب ! لقد أجتمع الأن شملنا وسنكون سعداء ، وأن ولدك ..

وما كادت جاكلين تسمع هذه الكلمة حتى هبت مذعورة وهتفت :

- ريمون ! هل أخبره أحد ؟ هل يعرف ؟

- كلا .. لا ترتاعى .. أنه لايعرف شيئا حتى الساعة .

ولكن ما عراها من الفزع كان أعظم من أن يذهب بسهولة فظلت تحاول

القيام والضعف يقعدها . وقالت لاهثة :

- هل لايزال هنا ؟ يجب ألا يرانى ! دعنى أذهب ! دعنى أذهَب !

وهمت بالقيام ولكنها تهافتت على مقعدها خائرة فدنا الدكتور شينيل منها ووضع يده على ذراعيها مهدئا وقال : سيكون فى وسعك الذهاب حالا يا سيدتى فأن القوة تعود اليك بعد قليل .

فنظرت اليه بلهفة وقالت : أنت طبيب .. اليس كذلك ؟

- أجل .. لا تستسلمى للأنفعال وسأشفيك بعد دقائق . ويمكنك أن تثقى بى كل الثقة ، أننى صديق لولدك .. صديق لريمون. ولكنه لن يعرف شيئا على الأطلاق .

فتركت يده وهى تنشج نشيجا مؤلما وقالت : لم يبق لى من ولدى غير ذكرياتى عنه ، وغير تصوراته عنى ، ولا أريد أن يذهب وقوفه على الحقيقة بالصورة المرسومه لى فى فؤاده .

وفتح الباب فاغمضت عينيها وأخفت وجهها ، ولكن القادم لم يكن سوى روز وقد عادت بالدواء ، مزج الطبيب شيئا منه بقليل من الماء ورفعه الى شفتيها فلم تكد تأخذ منه جرعة حتى شعرت بالنشاط يدب فى جسدها الواهن المحطم ، وقالت فى ضعف :

- أنى أعتقد ياسيدى الطبيب أننى سأقضى نحبى .

فقال الطبيب ضاحكا : لا تكونى حمقاء !

وانفجرت روز باكيه فعرفتها جاكلين ، وسرعان ما تعانقت السيدة والخادمة ودموع التأثر تهطل من عيونها .

وأنطلق نويل يتحدث اليها فى بشر ومرح ليسرى عنها ، وأنتهز الطبيب هذه الفرصة فانتحى بروز جانبا .. وسألها : أين المسيو فلوريو ؟

- فى الخارج .. مع المسيو ريمون .

قولى له ألا ينصرف .. أنها لن تعيش طويلا .

انسلت روز من الغـرفة وعـاد الطبيب الى المريضـه فألفى نويل يغـيض فى وصف مـا ينبـغى أن يكون لهـا من الثياب ويضع خطـة رحلة الى الريف وهو يضحك سرورا ، وكـانت تصغى اليه بأبتسـامة ضعيفه باهـته ، وتدخل الطبيب قائلا :

- بل سأخـذك الى بيتى فى بيـارتز حيث أوفـر لك جمـيع أسبـاب الراحة والهدوء ..

فهتـفت وصوتها يكاد يحـتبس من فرط التأثر : شكر لك يا دكـتور .. أنك لكريم جدا ، ولكن ماتعرضه محال لانى سأثقل عليك .

- أبدا ! أن البـيت واسع رحب ، وليس مـعى به سـوى شـقـيقـه يسـرها وجودك معنا .

وقال نويل : لقد أنقذ حياة ريمون ..

فتبدلت ملامح جاكلين وبدت فى وجهها أمارات الشكر وعرفان الجميل ، وقبضت على يده وقبلتها وهى تغمغم :

ليس فى مقدورى أن أصف لك شكرى :

سحب الطبيب يده برفق وهمس نويل :

- لقد بدل هـو وشقيـقتـه كل مايستطـيعان لمواسـاه فلوريو .. أن المسكين تحطم قلبه .. شـعر بجسمهـا المسترخى يتـصلب عند ذكر هذا الأسم البـغيض وقالت فى حزن :

- أنه لم يعان من ذلك بعض ماعانيت !

صمت نويل قليلا ، فلما عاد الى الكلام كان صوته مضطربا منفعلا :

- لقد وصلت بعـد ذهابك ياجاكلين ورأيت بنفسى مقـدار حزنه وندمه ، ولم ندخـر جـهـدا منذ ذلك الحين فى البـحث عنـك ، وفى هذا السـبيل طفنا بالعالم أجمع ، ولم يعرف فلوريو خلال العشرين سنة الماضية شيئا من الراحة أو الأستـقرار .. ومـا أشك يا عريزتى جـاكلين أنه كابـد من العذاب مـالا قبل

لاحد باحتماله ..

قالت فى حزن : لقد كان معه ولده .. أما أنا فلم يكن معي أحد.

وكأنما كانت كـلماتها نداء لريمون اذ أنفتح البـاب على أثرها بشده واندفع ريمون الى الغرفة .

الفصل الخامس والعشرون - النهاية

لم يكاد فلوريو يغـادر الغرفة مع ولده حـتى أرتمى على أحد المقاعـد خائرا مضعـضع القوى ، وجعل ريمون ينظر اليـه راجفا قلقا ثم وضع يده على كـتفه المرتعشه قائلا :

- ماذا بك يا أبى ؟

ولكن أباه ظل صـامـتا اذ كـان يجـاهد فى أستـجـماع كل مـاتبـقى له من الشجاعة والعزم لمواجهة الساعة الرهيبه التى كان يخشاها .

لم يعد أمامـة متسع للتردد والأحجـام ، فهو يعتقد أن سـاعات جاكلين فى هذه الحياة معدودة ، وليس فى وسعة أن تموت ثم يعرف ولده فيما بعد أن سلبه الفرصة الوحـيدة التعرف بها والتحـدث اليها .. كلا .. أن ريمون ليغـتفر له كل شيء الا هذا !

ورفع عينيه الحزينتين الى ولده وقال فى صوت أجش مرتجف :

- أى ولدى . لا مناص لى من أظهـارك على أمر مـريع هائل ، بل هو من الهول بحيـث لا تبلغه الظنون والأوهام ، وأنى لاعلم كيف كنت تحبـنى وتتخذ منى مثلا أعلى للرجولة . ولكنك سـوف تلعن القدر الذى جعل منى والدا لك حين تعرف الحقيقة .

فهتف الفتى مرتاعا وهو يطوق عنقة بذراعيه : أبت ! أبى ! ماذا . ؟ !

ولكن فلوريو أبعده عنه فى رفق ومضى فى كلامه قائلا أن أمك لم تمت !

غاض اللون من وحه الشاب وأرتد الى الوراء مترنحا وراح يحملق فى أبيه .

فى ذهول وهو يغمغم : لم تمت ؟

- نعم ؟ وقد هجرتنى قبل أن العام الأول من عمرك فصاح الفتى صيحة بين الحشرجة والأنين ..

وقال أبوه بصوت أجش : على رسلك . لقد كان الذنب ذنبى فيما فعلت .. كنت جاهلا بما يخالجها من الرغبات ودفع بها الأهمال الى الخطيئة ، ثم ذهبت مع عشيقها ..

فوضع ريون يديه على وجهه وأستند الى المنضدة كانما سحقته هذه الضربة سحقا ..

وصاح فلوريو وهو يهب واقفا : ولكن ثمة ماهو أدهى من ذلك، لقد عادت الى تستجدى الصفح والغفران : وكانت تتنزى الما عند قدمى وهى تلتمس الرحمة فى ذلة وضراعة . وبكم حاولت أن تظهر لى أننى أشاطرها وزر سقوطها ، ولكن كبريائى البغيضه الحمقاء رانت على بصيرتى ، وطفت على كل عاطفه كريمة من عواطف الرحمة والصفح ، فقذفت بها فى عرض الطريق ..

فقال الفتى وهو يزفر زفرة كاد يتصدع منها صدره : وماذا حدث لها ؟

فوضع فلوريو يده اليسرى على حلقه كأنه يختنق ، وحول وجهه مشيرا بيده اليمنى ال باب غرفة الرئيس ، وقال بلسان لايكاد بطبيعه : أنها هناك .. تلك المراة أمك !

وقف ريمون مترنحا كالشارب النمل ، وبدأ أبوه لعينيه كشبح يكتنفه الضباب ..

تدافعت فى صدره العواطف المختلفة تدافع الأمواج المتلاطمة ، ولكن عاطفه واحدة لم تمس نفسه ولم تجد لها مكانا بين تلك العواطف العنيفه المتزاحمه .. هى الشعور بالخجل من جسدها الملوث . ونفسها الملطخة بالأثم

والدنس .

كان فؤاده الذى ظل طوال حياته محروما من حنان الأم وعطفها يكاد يظفر من بين جنبيه شوقا ولهفه الى الأستمتاع بحب حتى مثل هذه الأم ، مثله فى ذلك مثل الشريد فى الصحراء يكاد يقتله الأعياء والظمأ ، ثم يرى أمامه فجأه بركة من ماء آسن فيخر على ركبتيه حمدا وشكرا .. وصاح بصوت مختنق : أماه .. ! !

ثم هرع الى باب الغرفة وهو يتخبط كالأعمى ، ولم يكد يدخل حتى أدرك الدكتور شينيل ونويل ماحدث .. فبادر الطبيب الى لقائه عند الباب هامسا :

- حذار .. أن أى أنفعال عنيف يكفى للقضاء عليها فى الحال..

وما زال ممسكا به حتى أستعاد بعض هدوئه وقال :

- نعم .. نعم .. لن أفعل ماينبئها بوقوفى على الحقيقة .

ودنا منها ونويل يعطيها جرعة من الدواء ، فنظر الى ريمون محذرا وجاكلين تحاول الوقوف وقد أخذ منها الجزع كل مأخذ .. ولكن الشاب تظاهر بأنه لايرى انفعالا وجزعها ، وهتف ووجهه يضىء بالأبتسام : كيف حالك ياموكلتى العزيزة ؟

فأجاب الطبيب بالنيابة عنها :

- ليس بها من شىء ذى بال ، أن هى الا نوبة عصبيه كان طبيعيا أن تعتريها .

فقال ريمون مبتهجا : شدما يسرنى ذلك ، لم أشا مبارحة المحكمة قبل الأطمئنان عليك .

فراحت تقلب بصرها مشوقه متلهفه فى وجهه الوسيم الصبيح .. ثم غمغمت .

- انك لكريم حقا !

واوما نويل الى الطبيب من طرف خفى قائلا من الغرفة وتركا بابها

مفتوحـــا ، وجلس ريمون الى جانب أمه وقال فى مرح :

- وما كان فى وسعى الأنصراف دون أن أقدم لك شكرى .

فـابتسـمت فى وجـهـه وأن لم تخل نظراتهـا من أمارات الـفزع وقـالت : تشكرنى .

قـال : بلا ريب .. آلا تريـن أننى مـدين لك بأول مـا أصـيـب من النجـاح والتوفيق فى عالم المحاماة ؟ أنى لم أشعر طوال حياتى بمثل ما أشعر به اليوم من السرور والأبتهاج .

قالت فى صوت يدوب رقة وحنانا : وما عساى أن أقول اذن ؟

- حسبى أن تقولى انك مسرورة .

فـحـدقت فى عيـنيه وقـد أودعت نظراتهـا كل مـايعـتلج فى صـدرها من عواطـف وقالت بصـوت متأثـر : أجل .. أنى مسـرورة جدا .. بل أكـاد أكون سعـيده ، وما كنت انتظر قط أن تبلغ أمـالى الى ماحظيت به اليوم من السـعادة والهناء .

وكان يبدو للناظر اليها أن القوة تـدب فى جسدها الواهن المضنى مسرعة ، فقد صار صـوتها أكثر ثباتا ، وعيناها أشد التـماعا . وسرى شىء من اللون فى خديها الذابلتين .

وشعـر ريمون بشفـتيـه تختلجـان انفعالا ، ولم يسـتطع أن يملك نفـسه من الأرتماء بين ذراعيها الا بجهد جهيد ، فقال بعد هنيهه متحفظا : أرجو الا أكون سببا فى تعـبك . الا ترين أن نتحـدث قليلا قـبل أنصرافى ؟ أنك لم تفـسحى أمامى مجال الحديث ، ومع أنك أول موكلة لى فأنى لا أكاد أعرفك !

قالت مـعتذرة وهى تمس ذراعة برفق : أرجـو أن تغتفـر لى سوء أستقـبالى لـــك .

أجاب ضاحكا : أنـك لم تستقبلنى أسـتقبالا سيـئا ولا حسنا فى الحقـيقة ، على أن هذا لم يغضبنى اذ قلت لنفسى : لعلها ترانى أصغر سنا من أن تعبا بى،

أو لعلهـا لاتثق بقدرتي علـى الأضطلاع بالدفاع عنهـا ، أو .. أو .. (لم أرخى أجفانه قليلا وأردف في صوت منخفض : أو لعلها تشعر بالنفور مني ولا ..

فشعر بيدها تضغط على ذراعة ضغطا شديدا وهي تهتف :

- لا تفكر في شيء من هذا القـبيل ! أنما كنت حزينه مـهمومـة .. لدرجة اليأس !

- والان ؟

- والأن أكاد أكون من السعداء بفضلك .

- أنه ليفـعم نفسي سـرورا أن أسمع منك هذا ، هل تعلمين بأني شـعرت بأشد الميل إليك منذ وقع بصري عليك ؟

قالت مبتسمة : حقا ؟

- أجل .. منذ أول لحظة .. اذ كنت على ثقة من أنك شقـية منكودة قست عليك الأقدار ، كما كنت أشد ثقة بأنها لـو أصفتك لكان عليها أن تحبوك بكل ما في الحياه من صـفو وهناء .. وكنت أريد أن أواسيك وأخفف عنك .. كنت أود أن أوصـيك بالشجـاعة والتـجلد ، وأن أقنعك بأنني لست محـاميـا عنك فحسب ، بل صديق لك كذلك .. صديق وفي أمين ..

قالت بصوت محتبس : ليتني عرفت ذلك !

جاهد ريمون في الأحتفاظ بتلك اللهجة المرحة فأستمر قائلا : ولقد قطعت على نفسي عـهدا بأن أربح قضيتك مـستفرغا في ذلك كـل ما وهبت من قوة . ولما كنت قد أبـيت أن تنقضي الى سرك وتـبوحي لي بما تطوين عليـه صدرك ، فقـد أجمعت أمري على أن أنـفذبفكري الى أعماق نفـسك فاستـخرج بالظن والاستنـتاج ماكنـت تحرصين على كـتمانه ، وهـانت ترين كيف نجـحت فيـما عقـدت عليه عـزمي و لقد جلـوت الحقيـقة وبددت مـا يكتنفهـا من الغيـاهب والظلمات فـخفق كل قلب بالعطف عليك والأنتـصار لقضـيتك ، وأنت الأن حرة طليقة ، لا يحول شيء بينك وبين الأنطلاق الى ذلك الأبن الذي تحبينه هذا

الحب العظيم النبيل ..

ثم أردف فى صوت مضطرب : ولكن عدينى الا تنسينى كل النسيان !

أجابت وقد أغرورقت عيناها : أنساك ! .. أنساك !

وحول ريمون وجهه حتى لاتقرأ ما فى عينيه ، وقال بصوت منخفض كأنه يقطع على نفسه عهدا : أما أنا فسوف آذكرك ما حييت !

صاحت جاكلين صيحة كحشرجة المحتضر وهى تجاهد فى الوقوف على قدميها ..

ولقد آلى على نفسه أن يحول بينها وبين ذلك الآلم الممض الذى لابد أن يصيبها اذا علمت أنه يعرف أنها أمه ، ولكن هذا الألم يبدو الأن يسيرا تافها أمام هذه القصص التى تتجرعها ، اذ ترى ولدها بين يديها دون أن تجرؤ على ضمة الى صدرها .

وقالت لاهثه محمومة : يجب أن أذهب .. يجب أن أذهب ولكنى لا أستطيع .

فقال ريمون وهو يضع يده على ساعدها برفق : بربك لاتذهبى !

قالت فى لهجة مؤثرة : كنت أحب أن أعطيك تذكارا منى قبل أن تنصرف غير أنى لا أملك شيئا .. بيد أنك تستطيع أن تكون على ثقة من أننى لن أنساك أبدا ..

فقال ريمون بصوت محتبس وجسد مرتعش : أعطينى يدك ؟ هل تذكرين عندما تناولت يدى أثناء المحاكمة وشددت عليها ؟ لقد شعرت اذ ذاك بأن عينيك تنفذان الى أعماق فؤادى ، وكم تمنيت لو أستطيع أن أخذك بين ذراعى وأضمك الى صدرى !

أقفلت جاكلين عينيها الشاردتين وتصلي جسدك فخر ريمون جاثيا عند قدميها وهو يقول فى صوت كالتشنج : الا تقبلينى .. يا أماه !!

فصاحت جاكلين صيحة اليمة وهى تضم رأسة الى صدرها بقوة، وراحت

تمطره بالقبلات وتبلل وجهه بالدموع وهي تقول :

- ولدى ريمون ! ولدى الحبيب ! يا آلهى أننى لا أقوى على أحتمال هذه السعادة !

وأخذت الدقائق تمضى سراعا ، وليس ثمة من صوت غير أنفاس جاكلين . ثم غمغم ريمون وهو يحاول أن يرفع رأسه : هل تتألمين يا أماه ؟

كان يشعر أن دقات قلبها قد ضعفت وأضطربت فجأة ولكنها همست :

- كلا .. كلا يا عزيزى ! لا تذهب .. لا تتحرك ! ولكن .. كيف عرفت ؟

- لقد أخبرنى أبى الآن فقط يا أماه ، أخبرنى بكل ماكابدت من الآلم ، ولكن هذا قد ذهب الى غير رجعه .

فلم تجبه الا بضمه حانية وسيل من القبلات .

وتلا ذلك صمت جديد ، ثم قال ريمون فى تهيب وأحجام :

- أن أبى فى الأنتظار يا أماه .. الا تريدين رؤيته ؟

فإبتسمت فى وجهه وقد غشى عينيها ظلام غريب ، وبدأ لها أنها تسمع صوته من بعيد . وقالت فى همس ضعيف : بلى .. بلى .. ! أطلب اليه أن يأتى .. سريعا !

وقبلها قبلة طويلة ثم هرع ركضا الى قاعة الجلسة ليدعو أباه ، وهمت جاكلين بالنهوض لتناول زجاجة الدواء ولكن قواها خذلتها فلم تستطع حراكا ، وحاولت أن تنادى ريمون ولكن الكلمة أحتبست بين شفتيها ، وشعرت بدوى فى آذنيها كهدير الموج المصطحب فى اليم المجهول ، وضباب يغشى عينيها كأنه ضباب ذلك اليم ..

وعاد ريمون راكضا ومن خلفه الرجال الثلاثه وهو يهتف :

- أسرع يا أبى ! أنها فى أنتظارك !

بيد أنه لم يلبث أن جمد فى مكانه ، فقد رأى فى وضع ذلك الجسد الساكن على المقعد ماعقد لسانه .



وأسرع الدكتور شينيل وجس اليد المتهدلة المسترخية ثم أنثنى مطرقا برأسه.
وأرتمى ريمون عند قدميها وهو يصيح من فؤاد يمزقه الأسى وتذبيه اللوعة :
آماه ! أماه !

***

فى مقبرة صغيره بوادى فيان يرى السائر نصبا صغيرا من الرخام الأبيض نقش بأعلاه أسم " فلوريو" بحروف كبيرة ، ومن تحته عبارات أولها :
" هنا يرقد جثمان جاكلين كلير جلبرت ليفيفر ، أم ريمون المحبوبة .... "
وهكذا وجدت "المرأة المجهولة" بين جدران القبر ما أعياها طلابه فى رحاب الحياة .. الحب والأسم !

شركة مطابع الدار البضاء
الحاج أحمد سعد الأبيض وأبنائه
القاهرة - العباسية
١٨ ش مستشفى الدمرداش
ت : ٢٨٢٥٠٤٦

روايات الجيب

أروع ما أنتجته قرائح كتاب

القصة فى الشـــرق والغرب

فى هذه السلسلة تقرأ قصص

الحب والحرب والمـ

ثمن العدد ....

٢٠٠ قرش